ثقافات الشعوب





الحارس الأمين
حكايات شعبية من اسكتلندا

جمع: جورج دوغلاس
ترجمة: ريما الجباعي

الحارس الأمين

حكايات شعبية من اسكتلندا

جمع :
جورج دوغلاس

ترجمة :
ريما الجباعي





الحارس الأمين

حكايات شعبية من اسكتلندا

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

الحارس الأمين: حكايات شعبية من اسكتلندا

هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

GR144.S365812 2010
Douglas, George Brishbane, Sir, Bart. 1856 - 1935.
[Scottish Fairy and Folk Tales]

الحارس الأمين: حكايات شعبية من اسكتلندا/ جمع جورج دوغلاس؛ ترجمة ريما الجباعي.
– ط.1.– أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2010.
206ص: 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 978-9948-01-547-5
ترجمة كتاب: Scottish Fairy and Folk Tales
1 – القصص الشعبية الاسكتلندية. 2 – الحكايات الاسكتلندية. أ– جباعي، ريما.
ب– العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبو هواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله التتان



كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ،
فاكس: 059 6336 2 971+

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
تقديم	9
الرجال الخضر الثلاثة من جلين نيفيس	22
حكايات الأطفال	58
حكاية الحمل الأبيض	59
الحمامة البيضاء	66
زواج روبن أبو الحناء والنمنمة	71
راشين كوتي	75
حكايات الحيوانات	82
الثعلب المخدوع	83
الثعلب والبراغيث المزعجة	85
الثعلب وحقيبة المزمار	86
مكر الثعلب	87
الثعلب وطائر النمنمة	90
الثعلب والديك	92
كيف فقد الذئب ذيله	91
النسر والنمنمة	94
افتراض النمنمة	95
الثعلبان	96
النحلة والفأر	98
الفأران	99

ألكسندر جونز	100
حكايات الجن	110
جن اسكتلندا	111
الجنية وزوجة الطحّان	114
السير غودفري ماكولوتش	117
سيد الخلجان	119
هابيتروت	122
تولمان	131
جزيرة بابيدا	133
سانتاريا	134
جنيات الماء	138
الانتقال بواسطة الجن	141
رجل بيتلو المسكين	144
صبي الجن في ليث	146
الفلاحان الشابان	150
الجن والحداد	152
زوجة فلاح لوثين	157
العودة من أرض الجن	158
الجنية وقارئ الكتاب المقدّس	165
توم وويلي	166
الحظيرة المعتمة	171
الحارس الأمين	174

هذه السلسلة

تأتي هذه السلسلة التي تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العالم العربي. تلك القيم والأهداف التي تسعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها ، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها – مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة – تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في

أقاصي الغرب، أو شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه - وإن بلغة أخرى - جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

تقديم[1]

في السنوات الأخـيرة ومنذ فترة قصيرة نسبياً، أصبحت الحكايات الشعبية المتواردة على ألسنة الريفيين تشكل فرعاً من فـروع العلوم الإنسانية، وأخضعت إلى مناهج البحث والاصطلاح العلميين. ولا شك في أن هذه المناهج جعلت الحكايات تقدم كسباً مهماً للمعرفة، إذ أفرد لها قسم خاص في برامج البحوث سُلط الضوء على الكثير من العناصر والعوامل الخارجية المحيطة بها، والتي غدت تعتبر أكثر أهمية من تلك الحكايات نفسها موضوع البحث. لكن وبالتوازي مع هذا الكسب الذي قدّمته الحكايات الشعبية للمعرفة الإنسانية، ألم يؤثر تطبيق مناهج البحث هذا سلباً عليها؟ أولم تفقد هذه الحكايات شيئاً من روحها؟

(1) ألقيت مادة هذه المقدمة كمحاضرة في معهد رويال في 29 يناير 1892 (المؤلف). ونقدّم في هذه الترجمة العربية ملخصاً عنها بسبب شدة طولها (م).

ما أعنيه أنه وخلال تطبيق مناهج البحث العلمي في دراسة هذه القصص قد تم تصنيفها وجدولتها وإطلاق أسماء علمية عليها، فلم تعد نتاجاً حراً للطبيعة. وبالنتيجة، فقدت طبيعتها التي تميّزت بها والتي أحببناها بسببها، وأصبحت تشبه مجموعة من الفراشات الملونة في ألبوم للورود المجففة. فبالرغم من أنها لا تزال ممتعة، وذات قيمة تعليمية، لكنها فقدت شاعريتها وبريقها، والعطر الذي كانت تنشره حولها في سمائها الفطرية وأرضها البكر، كما فقدت روحها.

إذن، ورغم تقديري الكبير لكافة الجهود المبذولة من قبل دارسي الفلكلور وعلماء الأساطير المقارنة، أليس هناك إمكانية حتى في الوقت الحالي، لدراسة هذه الحكايات من وجهة نظر مختلفة؟

وجهة نظر هي الأبسط والأوضح، وأعني بها شفافية الراوي وبساطته.

آمل ألا نكون قد وصلنا إلى وقت بدأت تفقد فيه هذه الحكايات القديمة ميزاتها وقدرتها على إمتاعنا وإدهاشنا. وعلينا أن نعترف أن هناك بعض الأشخاص بيننا ما زالوا يعتقدون

أن هذه الحكايات قصصاً حقيقية، وسوف يعتبرونها خسارة شخصية كبيرة لهم، عندما يجدون أنفسهم مضطرين إلى الاقتناع بأن بطل طفولتهم المثالي والذي قام بالكثير من المآثر البطولية، وخاض معارك دامية ونزف حتى الموت، لا يعدو كونه خرافة من بنات الخيال، وأنه مجرد استعارة أدبية لتجسيد فكرة الغروب. وسوف يشعر هؤلاء الأشخاص الذين صدّقوا هذه الحكايات بالحيف حين يكون عليهم أن يدركوا أن البعبع الذي عرفوه في طفولتهم والذي اعتقدوه بعبعهم الخاص ليس حكراً عليهم بل هو نفسه البعبع الشائع عند سكان بولنيسيا[1] الأصليين، فالارتباط بشخصية ما في الطفولة يكون كبيراً جداً. ولهذا أقترح أن نتناول حكايات الفلاحين الاسكتلنديين ببساطة من وجهة نظر الأشخاص الذين رووا القصص وأولئك الذين رويت لهم في الواقع.

أفترض أن كل أمة قد مارست فن القصّ، أو سرد القصص في الطور البدائي من حياتها، والاسكتلنديون ليسوا استثناءً. فقبل ثلاثين عاماً كتب كامبل إيزلا، ما يثبت أن رواية القصص في أيامه كانت لا تزال قائمة في جزر «بارا» الغربية المنعزلة، حيث

(1) البولينسيا الفرنسية هي مجموعة جزر ماوراء البحار تابعة لفرنسا تقع في جنوب المحيط الهادي (م).

كان يجتمع حشد من الناس في ليالي الشتاء الطويلة للإصغاء إلى أولئك الذين كانوا يعتبرونهم أساس الفن في وقت مضى— ولكن ما زال ضمن الذاكرة الحية— فقد استمر سرد الحكايات في بولوي[1] في روس شاير[2] حيث اعتاد الصغار أن يجتمعوا كل ليلة ليستمعوا إلى المسنين، وهم يقصون عليهم الحكايات التي سمعوها من أجدادهم. وفي مناطق أخرى من البلاد أيضاً، كانت الحاجة إلى القصص تلبّى من قبل الباعة المتجولين أو من قبل المتسولين، أو الموسيقيين المغنين الجوالين، أو الخياطين والإسكافيين الجوالين، الذين كانوا يسمون «ويب ذي كات» «Whip-the-Cat»[3] —فقد كانوا يتنقلون بين المقاطعات الأقل كثافة سكانية في البلاد لممارسة مهنهم، ويُستضافون في بيوت المزارعين. وبينما يجدلون خيوطهم، كانوا يروون القصص لتسلية جلسائهم .

وكان يعتبر وصول أحد رواة القصص أولئك إلى إحدى القرى حدثاً مهماً. وحالما يشيع خبر وصوله، يسارع الناس إلى البيت الذي حلّ به، ويحتلون كل المقاعد المتوافرة، على الدكة

(1) قرية تقع في شمال غرب مدينة إنفرنيس في شمال اسكتلندا (م).
(2) الشاير هي المقاطعة أو الإقليم ومقاطعة روس هي من مقاطعات اسكتلندا القديمة (م).
(3) لقب عرف به قديماً الباعة الجوالون (م).

والطاولة والسرير والعوارض الخشبية، أو حتى على الأرض، وكممثل من الدرجة الأولى يبدأ الراوي بالقصّ، ويحبس أنفاس مستمعيه لساعات وكأنهم مسحورون. وبالمناسبة هناك العديد من أولئك المستمعين كانوا يصدقون بشكل قاطع كل ما يروى من الخوارق والعجائب. وخلال سرد القصة، كانت عواطف الراوي ومستمعيه تبلغ أقصاها، إذ يتفاعل المستمعون والراوي مع الحكاية، حتى يكاد الدمع أن يطفر من عيونه أحياناً، وفي أحيان أخرى ينفجرون في ضحك صاخب. وهناك العديد من هؤلاء المستمعين الذين يعتقدون بصحة ما يُروى على مسامعهم[1].

ولا شكّ في أن مثل هذه المشاهد المسرحية الريفية –والتي آمل أني سأعرضها في مجموعتي هذه– تركت بصماتها على الأدب الاسكتلندي.

خلال جولته في الجزر زار كامبل إيزلا أحد رواة القصص القدماء في بيته. كان الرجل طاعناً في السن ويعيش في كوخ بسيط على شاطئ ساوث أو يست[2]. قدم كامبل وصفاً تفصيلياً لبيت الرجل. فالكوخ مؤلف من غرفة واحدة، موقدها الأرض ومدخنتها فتحة في السقف فوق الموقد. ولهذا فالدخان يملأ

(1) يذكر هذا كثيراً بنموذج الحكواتي في التقاليد العربية (م).
(2) جزيرة في غرب اسكتلندا (م).

الغرفة، والسخام يرسم أشكالاً على السقف. أما المسنّ فاتضح أنه حكواتي بارع، حيث أنه قد يضحك خلال سرد مقاطع محددة من القصة، وكما يفعل الراوي في قصة البحار القديم أو كواحدة من الشقيقات الثلاث[1] فإنه يضع إصبعه على ركبة المستمع حين يصل إلى مواضع مخيفة من الحكاية. وكان هناك طفل صغير يرتدي كلتية[2] يجلس على ركبتيه محدقاً بوجه الرجل المتغضن ملتهماً كل كلمة يتفوه بها. وقبيل أن تشارف القصة على نهايتها، دلف إلى كوخه ثلاثة من عابري السبيل وأخذوا يصغون لبعض الوقت، ثم مضوا في سبيلهم. كان ضوء النهار يتسلل من المدخنة فيضيء بقعة من الدخان الأزرق الذي يملأ الهواء، ثم يسقط على شعر الحكواتي الشائب، وعلى قسمات وجهه الحنطي المليء بالتجاعيد وهو جالس على مقعده الواطئ قرب النار، ثم ينير باقي الغرفة وأثاثها من الصناديق والسرير المصنوع منها، والخزانة والأطباق وشتى الأغراض، ثم يبهت الضوء مخلّفاً ظلالاً بنية داكنة على السقف المسودّ، وعلى الزاوية حيث يخزّن الرجل الخثّ وفحم الموقد.

لننتقل الآن من الراوي إلى القصص.

---

(1) أو الساحرات الثلاث، شخصيات ظهرت للمرة الأولى في مسرحية شكسبير ماكبث (م).
(2) - الكِلْتِيّة وهي تنّورة رجالية اسكتلندية (م).

من أبرز ما يميز قصص مرتفعات (هاي لاند) اسكتلندا[1] - التي لابد أن نعترف بأنها أحياناً مضجرة تتكرر فيها الحوارات نفسها ويعاد إنتاج الموقف نفسه مراراً—هو الحكايات التي تتحدث عن الأبطال والعمالقة. ومن جهة أخرى فإن النوع الأقصر من الحكايات الشعبية يتحدث عن الحيوانات البكماء - ليست بكماء على الإطلاق، على الأقل في القصص. والجبال غنية بهذه الحكايات، ويسهل أن نفهم كيف عاش الريفيون بشكل عام (بحكم قربهم من الطبيعة) فقد تميزوا بالفراسة والنباهة ونفاذ البصيرة ولهذا فقد قدروا الكثير من خصائص البهائم كما أنهم تعاطفوا مع الحيوانات في صراعها من أجل البقاء. هذه الصفات التي قد يفتقر إليها أولئك الذين عاشوا حياة متكلفة في بيئة اصطناعية. لذا فإن بعضاً من هذه الحكايات الخرافية التي تناولت ميزات الحياة الحيوانية التي جسدت تلك المعرفة، وقدّرتها وتعاطفت معها، قد صيغت بطريقة ساذجة وطريفة عمداً، وليس لافتقار مؤلفيها إلى الحذلقة والأساليب الإنسانية المتكلفة.

أما المجموعة التالية من الحكايات التي سنتناولها، ففيها درجة أكبر من الخيال. ويجب ألا يعتبر هذا الخيال إلا كجزء

(1) Highlands: اسم يطلق على المناطق الجبلية الوعرة في اسكتلندا (م).

من الخصائص التي تتصف بها عقول العديد من الفلاحين الاسكتلنديين. تنعكس هذه الصفات بأبسط صيغها ربما، من خلال التسميات التي أطلقوها سواء على الظواهر الطبيعية أو على الأمكنة. وتحمل هذه الأسماء صفات الطبيعة المدهشة. ففي المرتفعات –هاي لاند– مثلاً، فإن الأسماء الغيلية[1] غالباً ما تكون مدروسة بعناية وإتقان. أما إذا انتقلنا إلى الأراضي المنخفضة– لولاند– فإننا نجد في تلال سيلكيرك شاير[2]، أن شلال الماء الذي يتدفق غزيراً وداكناً فوق المنحدرات ويندفع إلى الأسفل مغطياً الصخور بالزبد، قد أطلق عليه اسم «ذا غريه ماريس تيل» والتي تعني ذيل الفرس الأشهب. أما الهضبتان التوأمان في روكسبيرغ شاير واللتان تتميزان بقمتيهما المدوّرتين والمتطابقتين بشكل جميل مدهش فقد تعمدتا باسم ميدين بابس[3]. ثم هناك الغيوم الشبيهة بالصوف المعروفة عند الريفيين البسطاء باسم «غوتز هير» أي شعر الماعز، وتعرف ظاهرة الشفق القطبي الشمالي بين صيادي السمك في شيتلاند باسم «ميري دانسرز» أي الراقصات المرحات. وتحمل نجوم الثريا اسم «المتلألئات»، أما كوكبة الجوزاء بنجمتها الصغيرة أيوتا المتدلية كأنما من طوق امرأة

(1) نسبة إلى اللغة الغيلية وهي لغة سلتية قديمة (م).
(2) مقاطعة سيلكيرك (م).
(3) سميتا كذلك بسبب شبههما بنهدي المرأة (م).

فتعرف باسم «ذراع الملك» أو «مقياس الياردة». أما الرغوة التي تلتصق بسويقات النباتات التي تنمو في منتصف الصيف فتعرف باسم بصاق الساحرة.

أعتقد أن هناك مسحة شاعرية في هذه القابلية على إطلاق الأسماء، وفي الحقيقة ففي منخفضات اسكتلندا -لولاند- فالشعراء الريفيون هم ظاهرة شائعة تماماً. ولا يفتقر الفلاحون في نزعتهم هذه إلى إطلاق الأسماء إلى الرمزية الأدبية، حيث الرمزية التي يعرفونها هي تلك الموجودة في الكتاب الوحيد الذي اكتسب انتشاراً دائماً وكونياً بينهم (الكتاب المقدس). فعلى سبيل المثال فإن العلامة السوداء تحت خياشيم سمك الحندوق معروفة بين صيادي الساحل الشرقي بإبهام بطرس. بينما النبتة الفظة التي غالباً ما تتواجد في حقول الذرة وتتميز بأوراقها ذات الألوان الغريبة وكأنها مطلية بالروث والتي أحسب أن علماء النبات يسمونها «بوليغونام بيرسيكاريا» معروفة محلياً في المناطق الحدودية بأنها: «الزهرة التي تنمو أسفل الصليب».

ربما كان المفكرون الأعمق، بين ظهراني شعب له فلاسفته وحالموه، هم رعاة الجبال. وعبر أحد أولئك الرعاة استطعنا اليوم بلا شك أن ندخل إلى عالم الخيال، وإلى أرض الخرافات. وقد

كان جيمس هوغ أحد رعاة وادي «إيترك» واحداً من أولئك الرجال العباقرة، وربما كان أكثرهم عبقرية، والذي أغنى تاريخ الأدب بالأفكار المتخيلة والحكايات، حتى أصبح صيغة ملاصقة للأدب. لم يكن هناك في تاريخ الأدب من يضاهيه في قصص الخيال غير المألوفة. لا أحد البتة، ما عدا شكسبير - ولا حتى دريتون - كتب حكايات خرافية أفضل مما كتبه هوغ.

ولد هوغ في آركاديا اسكتلندا عام 1770 في غابات إيترك حيث - كما أخبرنا سكوت[1]- ساد الاعتقاد بالخرافات والجن أكثر من أي منطقة أخرى. فمنذ يفاعته هاجت في صدره روح المنافسة متأثراً بالشاعر بيرنز[2]. وهكذا، في أثناء رعيه الماشية في الجبال المنعزلة، علق في عنقه قرناً من حبر، وعلّم نفسه الكتابة، ثم خطّ أول قصيدة له على الورق. بما أنه كان كثير التجوال والتأمل، يحكى أنه نام ذات يوم الأيام على سفح هضبة خضراء ليحلم بكيلمني[3] ولتبقى صورتها محفورة في قلبه إلى الأبد.

أما قصة كيلمني فهي قصة فتاة ذات طبيعة شاعرية تحب الوحدة. وذات شفق كانت تتجول وحيدة ثم اختفت فجأة في

---

(1) والتر سكوت (1771-1832): مؤرخ وشاعر وكاتب اسكتلندي (م).
(2) روبرت بيرنز (1759-1796): شاعر اسكتلندي معروف (م).
(3) امرأة متخيلة (م)

واد منعزل، ولم يجد بحث أصدقائها الطويل في العثور على أثر لها، حتى فقدوا الأمل أخيراً.

ومرت السنوات وبقي سر اختفائها لغزاً محيراً. وفي الشفق ذاته وفي الساعة نفسها التي اختفت فيها قبل سبع سنوات، عادت كيلمني إلى بيتها. كانت قد قد اختطفتها الجنيات وعاشت معهن كل ذلك الوقت. ولكن حتى في أرض الخيال ظل قلبها يتوق إلى وطنها، وبعد مرور سبع سنوات فقدت الجنيات القدرة على احتجازها رغماً عن إرادتها، وكان عليها أن تختار، فاختارت ترك الحياة السعيدة التي عاشتها بينهن والعودة إلى الأرض.

هذا محور القصة بشكل عام، ولكن القصة بحد ذاتها هي الجزء الأقل قيمة في قصيدة هوغ، إذ يكمن سحر القصيدة في انسيابها المتقن ونظمها الموسيقي وهي تصف عالم السحر والظلال «في أرض ينسى فيها كل شيء» وفي رقة كلماتها الحزينة وجمال أسلوبها المتناسب تماماً مع موضوعها.

إن لمسات الخيال في شعر راعي إيترك لساحرة بالفعل، إلى درجة تغرينا بأن نتوهم بأن التجربة التي تمنحها التقاليد لتوماس الناظم[1]، قد شاركه فيها من جاؤوا بعده.

---

(1) أو توماس الشاعر: شاعر ومتنبئ اسكتلندي من القرن الثالث عشر (م).

كما في إنجلترا، فإن حكايات الجنّ الذين يظهرون في المروج الخضراء في أوقات الشفق أو في ضوء القمر حيث يؤدي لهم البشر الفانون خدمات معينة ويتلقون المكافآت السخية على صنيعهم، احتلت مكانها بين أساطير الفلاحين الاسكتلنديين. ولا ريب في أن هذا الخلق لجنيات لطيفات وكريمات وغير مؤذيات، إن لم يكن ذا نفع، فقد كان الغذاء المناسب لخيال عباقرة الأدب الاسكتلنديين. تلك العبقرية التي كانت كئيبة في جوهرها- وقد خففت من كآبتها طرافة فظة— ولكنها في الأغلب تميل إلى السوداوية. ومنشأ هذه السوداوية هو عدوانية الطبيعة الخالدة تجاه الإنسان الفاني، وانتصارها الدائم في معركتها مع الإنسان الذي يدفع ضريبة هذا النصر في صراعه من أجل الوجود، ذلك الوجود الذي يكسب فيه امتيازات زهيدة ومؤقتة ولكنه يعرف منذ البداية أنه يصارع ضد قوى مستحيلة وغريبة الأطوار. تلك هي حقيقة الأرض القاحلة والمناخ الجاف والعاصف، الحقيقة التي فرضت نفسها قسراً على خيال الاسكتلنديين بشكل عام وإلى الأبد. فالراعي الذي يقاتل من أجل حياته وحياة شعبه ضد قوى التيه وقوة الثلج القاسي، هي صفة تطبع الصور الأدبية الاسكتلندية أكثر من صور جيمس هوغ، النائم على حافة الهضبة حالماً بأرض الخيال.

ولكن من غير ريب إن العنصر الأكثر قيمة في حكايات القرويين من وجهة نظر شاعرية، ليس هو العنصر الخيالي أو المتخيل، بل الإنسان أو الكائن البشري، وفي بعض الحالات نجده مصحوباً بقوة خارقة. ولعلّ أكثر الخرافات الاسكتلندية ترويعاً وغرابة وغموضاً حتى الآن، تتمثل في إيمانهم بعودة الموتى بشكل دوري إلى بيوتهم، ليس كأشباح تظهر في الليل ولا يراها غير الشخص الوحيد في الظلام، بل ككائنات اجتماعية تعود لتنضم إلى اجتماع العائلة، وتشاركهم احتفالاتهم، أو وفق العبارة القديمة المختصرة، تعود «لتأكل وترقص مع الأحياء».

لا شيء أكثر شيوعاً في مثل تلك الأيام من تذكر الناس لأصدقائهم وأحبائهم الذين رحلوا، وقد كانوا معهم في احتفالات السنة الماضية. وما هذه اللحظات التي يتذكر فيها الناس الراحلين ويتكلمون عن مناقبهم ومواقفهم وتصرفات معينة لهم، إلا حالات من الوجدان والخيال الشعري التي يشعر الناس من خلالها أن الموتى حاضرون معهم بأرواحهم، ولا تفصلهم إلا خطوة واحدة عن استحضار وجودهم الجسدي، ومن هنا قد ولدت هذه القصص الغريبة، ومن هنا بلا شك بدأت قصص الخيال والخرافات الجميلة والمؤثرة.

جورج دوغلاس

الرجال الخضر الثلاثة من جلين نيفيس[1]

ا.

قالت أرملة رانوتش لأولادها الثلاثة دونالد ودوغالد ودانكن: «حسناً، لم يعد هناك فائدة من الكلام. ليس في البيت سوى رغيف خبز واحد وبوبي[2] في المحفظة، فاسعوا جميعاً في الأرض طلباً للمال والثروة. وإذا ما حالفكم الحظ وحصلتم على المال، لا تنسوا أمكم العجوز التي بذلت قصارى جهدها من أجلكم أياماً طوالاً».

اتفق دونالد ودوغالد ودانكن على أن أمهم تقول الحق وأن أفضل ما يستطيعون القيام به الآن هو أن ينطلقوا برحلتهم في الحال ويعودوا حالما يسمح لهم الحظ في جمع الثروة.

وهكذا قسمت الأرملة رغيف الخبز أربعة أقسام، وأعطت كل واحد منهم قسماً ليضعه في جعبته، وتركت القسم الأخير لنفسها، ثم باركتهم بدعواتها وانطلقوا برحلتهم.

(1) أحد الوديان الشهيرة في مرتفعات اسكتلندا (م).
(2) بوبي: نصف بنس وهي عملة اسكتلندية قديمة (م).

في البداية اتجهوا نحو الغرب حيث يمتد المحيط الكبير، متأملين بأن يجدوا سفينة عابرة تقلهم إلى الجنوب، حيث الكثير من الذهب ينتظر من يجمعه. ومهما يكن فالجنوب سيكون أفضل بكثير من الشرق الذي يعرفون حق المعرفة أن سكانه فقراء مثلهم.

وبينما يسيرون متعبين بين المستنقعات، غنى دونالد أغنية لتخفيف التعب عن دوغالد ودانكن. وعندما سئم، قص دوغالد قصة تساعدهم على تزجية الوقت، وبعد أن أنهى قصته أراد دانكن أن يظهر مهارة أخرى في اللهو والتسلية، لكنه وقف فجأة وأمسك بذراعي أخويه ودفعهما أمامه إلى داخل حفرة من الخث[1]، محذّراً إياهما من أن يأتيا بأي حركة أو ينبسا بأي صوت، لئلا يعرضا حياتهم جميعاً للخطر، قائلاً: «لقد لمحت ساحرة بين إيبيراس آتية باتجاهنا».

ومن غير ريب كانت الساحرة تتجه نحوهم بخط مستقيم، ملوحةً بعكازتها السحرية. وحين خطت فوق المستنقع كانت المياه البنية تندفع حولها، وعندما تسلقت روابي الخث أخذ التراب والعشب يتطايران أمامها في كل اتجاه. وعندما زحفت

(1) فحم المستنقعات (م).

على الطريق الجافة، لازمتها زوبعة من الغبار كأنها خادمتها الشبح.

وهكذا مرت على مقربة منهم دون أن يخطر ببالها أن هناك بشراً هناك، حيث جثم الإخوة الثلاثة بصمت مطبق ودون حراك، حتى تلاشت آثارها خلف سفوح الجبال السوداء.

قال الأخ الأصغر دانكن: «إنها فرصتنا الآن، بما أن العجوز ذاهبة في رحلة، فلنذهب وننهب عشها».

قال دونالد: «آه! ولكن هذا يعتبر سرقة!».

قال دانكن: «سرقة؟ هذه سرقة المسروق! ما أدراك أننا لن نجد هناك بعضاً من متاعنا؟ وبكل الحالات إن لم تكن متاعنا فإنها حتماً ليست ملكها، بغض النظر عن أصحابها». ورغم أنه الأصغر سناً، إلا أن دانكن كان الأكثر ذكاءً في الأسرة، فلم يكن يعارضه أحد. لذلك حسم النقاش في الأمر، وانطلق الثلاثة إلى «بين أيبراس».

لم يطل بهم الوقت حتى وصلوا إلى قمة التلة، حيث بيت الساحرة، وبئرها التي مازالت قائمة إلى يومنا هذا، فقد كانوا مستعجلين لإنجاز مهمتهم قبل أن تعود العجوز وتفاجئهم. لقد كانوا شباباً جسورين

ليتسلقوا تلك الهضبة الشاقة، ومع ذلك فمن شدة الخوف فقد نبت لكل منهم إصبع إضافي في كل قدم كما يقول المثل.

صعدوا إلى الكوخ ووجدوا كل شيء مطمئن، وبدا لهم أن الساحرة قد ذهبت في رحلة طويلة ولن تعود في وقت قريب، لأن الباب كان مقفلاً، كما لم يكن هناك أي أثر للدخان في المدخنة.

وخلال وقت قصير وجدوا مدخلهم إلى الكوخ عن طريق رفع القشّ عن السقف، ولكن خاب أملهم عندما لم يجدوا في الكوخ الكثير من الأشياء القيمة، فمن المؤكد أنه إذا كانت الساحرة تمتلك أشياء ثمينة، فسوف لن تحتفظ بها في ذلك الكوخ.

أشار دانكن: «الآن يجب أن نبحث جيداً في جوار الكوخ، ولكن قبل أن نبدأ بالبحث دعوني أحضّر خطة لحماية أنفسنا في حال عادت الساحرة فجأة. إن حدث ذلك فأنا أعرف حيلة ستقضي عليها وليس عليكم سوى أن تفعلوا ما أقوله لكم وسيكون كل شيء سوف يكون على ما يرام».

وكالعادة وافق الأخوان، فهما كما أسلفت يثقان ثقة مطلقة بعبقريته.

«دونالد، اصعد إلى أعلى المدخنة وراقب الطريق من جهة الشمال الشرقي، وحذرنا إذا ما رأيت أي شخص قادم. أما أنت يا دوغالد فراقب الجنوب الغربي وافعل الشيء نفسه». وهكذا خرجا وفعلا ما أمرهما به.

كان بيت الساحرة مبنياً فوق بئر، والطريق إلى البئر تمر من أرض الكوخ من خلال باب له مفاصل فولاذية مخفي في أرض الغرفة. وعندما اكتشف دانكن ذلك، خلخل مفاصل الباب بخنجره، حتى شعر بأن إضافة القليل من الوزن سوف تفتح الباب وكل ما عليه إلى الماء في الأسفل. وهنا قام دانكن بوضع كرسي الساحرة على الباب وربط رجل الكرسي بحبل متين، ولف الطرف الآخر للحبل على الحاجز الحديدي المنتصب في الزاوية. بعد ذلك سحب الطاولة باتجاه الكرسي وفرش الرقعة بكيس كبير من الأعشاب وزوج من السكاكين، كما لو أن مأدبة قد أعدت من قبل العفاريت قبالة عودة سيدتهم. ثم جمع دزينة من الأحجار الكبيرة وكوّمها بجانب الباب، لتكون في متناول اليد فيما لو بوغت بعودة الساحرة.

لم يكد دانكن ينهي تحضيراته، حتى صرخ دونالد معلناً عودة الساحرة بسرعة من جهة الجبال السوداء، وعندما نظر الإخوة

الثلاثة شاهدوها آتية مباشرة نحو بيتها وهي تلوّح بعصاها السحرية.

قال دانكن: «هيا بسرعة! ادخلا من فتحة السقف إلى الكوخ واجلسا في الكيس الكبير على الرقعة، وزخرفا وجهيكما بالكرنب، وأبقيا عيونكما مغلقة، ولا تتحركا أو تفوها بكلمة، وسيكون كل شيء على ما يرام».

فعل دونالد ودوغالد ما أمرهما به. فزحفا عبر فتحة السقف إلى داخل الكوخ، وجلسا في الكيس الكبير، وزخرفا وجهيهما بالكرنب، وأغمضا عيونهما. بينما اختبأ دانكن خلف الحاجز الحديدي الكبير في الزاوية وهو يمسك الحبل في يده.

وهكذا انتظرا جميعاً بصمت مترقبين ما سيحدث.

لم ينتظروا طويلاً حتى وصلت الساحرة الشمطاء، وفتحت الباب بلمسة من عصاها، ثم رأوها تدخل شامخة برأسها، تصدر شخيراً من أنفها، فطوال الطريق كانت تشم رائحة الطعام، ولم تستطع أن تحدد مصدر الرائحة.

همهمت بسرور: «ها، ها، عفاريتي المخلصون قد حضروا لي وليمة عظيمة في غيابي. يا لها من وليمة! ثم رمت عصاها السحرية في الزاوية، وتناولت الشوكة والسكين وجلست إلى المائدة واستعدت للاستمتاع بعشائها الشنيع.

ولكن العشاء لم يكن محضراً لها هذه المرة. فبينما كانت تهم بالجلوس، سحب دانكن الحبل بقوة فانزاح الكرسي من تحت الساحرة، وسقطت مباشرة على غطاء الباب السري للبئر الذي طوّح بها إلى الخلف، وسقطت في البئر.

«هيا بنا!» قال دانكن، فقفز الأخوان من فوق الطاولة ثم رموا كومة الحجارة التي جهزها دانكن على امتداد الجدار، فركضوا وبدأوا برمي الحجارة فوق الساحرة. وبعد أن انتهوا، أعادوا الطاولة إلى مكانها فوق باب البئر، ثم كوّموا فوقها كل ما وصلت إليه أيديهم، فلم يتركوا أي شيء كانوا قادرين على رفعه أو تحريكه. ثم جلسوا فوق الكومة والعرق يتصبب من وجوههم لينالوا قسطاً من الراحة بعد هذا الجهد المضني الذي قاموا به.

قال دانكن حين رأى عكازة الساحرة تزحف نحو الباب كالأفعى: «لا لن تفعليها». ولكن العكازة كانت عصية عليه، فتلوت وانزلقت إلى الخارج من تحت الباب، وسرعان ما ضاعت بين الخلنج والسرخس الذي يغطي قمة هضبة «بين أيبريس».

لم يصدر أي صوت من البئر لبعض الوقت، فاستنتجوا أن الساحرة العجوز قد ماتت إلى الأبد. اقترح دانكن أن يبحثوا بهدوء وروية في أرجاء المكان علهم يجدون ما يستحق أن يُحمل.

وهكذا بحث دونالد في الجهة الشمالية للقمة ودوغالد في الجنوب أما دانكن فبحث في الجهة الشرقية، أما الجهة الغربية فكان البحث فيها بلا جدوى حيث يمتد الجرف من قمة الهضبة إلى الأسفل.

ذهب دونالد إلى الشمال إلى ما يمكن أن يقال إنها الحديقة إذا صح تسمية مجموعة الأعشاب تلك، بالحديقة. مشّط دونالد تلك البقعة لكنه لم يجد شيئاً ذا قيمة. وشعر بالاشمئزاز لبذل كل ذاك المجهود من أجل لا شيء.

وعندما يئس دونالد من إيجاد أي شيء وقرر أن يكف عن البحث، لاحظ أن زهرة جميلة تنمو إلى جانب صخرة عند نهاية القمة، وفكر أن يذهب ويلقي نظرة على تلك الزهرة الجميلة قبل أن يذهب ليخبر أخويه بأن بحثه لم يكن مثمراً. لقد كانت نبتة جميلة بحق، لها زهرة صفراء كبيرة كالأقحوان تنمو فوق ساق متينة، وقد انبثقت من حزمة من الأوراق الخضراء. من المؤكد أنه لم ير في حياته مثل هذه الزهرة، فوقف يتأملها بإعجاب شديد، ثم قال: «ترى لأي نوع من النبات تنتمي هذه الزهرة؟».

أجابت الزهرة: «أنا نبتة الرعد».

«نبتة ماذا؟».

«نبتة الرعد».

«هل أنت جادة، وأي نوع من النبات هذه؟».

«اقترب وشمني وسوف ترى في الحال».

دفع الفضول دونالد ليعرف أي نوع من النبات هي زهرة الرعد تلك، فانحنى فوق الزهرة، وتنشقها بعمق. بانغ! سمع دوياً سريعاً مروّعاً، رددت الجبال صداه، فسقط دونالد على ظهره من الدهشة والخوف.

قال دونالد: «حسناً، كل يوم يتعلم الإنسان شيئاً جديداً». ثم نهض وأخذ ينفض الغبار عن ثيابه، ثم أردف: «لست واثقاً، ولكن قد تكونين رفيقة جيدة في المآزق إذا استطعت دائماً أن تفعلي ذلك عندما يطلب منك».

قالت الزهرة: «لا أمانع الذهاب معك، اقتلعني بحذر وضعني في جعبتك، فقد أكون مفيدة لك في طريقك».

وهكذا اقتلع دونالد زهرة الرعد بسكينه بعناية، ووضعها في حقيبته وقال لنفسه: «في كل الأحوال سوف لن أعود إلى البيت

صفر اليدين، بالرغم من أني لست على يقين في هذه اللحظة بمَ سوف تفيدني زهرة الرعد».

قالت زهرة الرعد: «سوف يخبرك الزمن بذلك».

«نعم، سوف يفعل».

في هذه الأثناء كان دوغالد الأخ الثاني قد ذهب بحثاً عن الكنز في الجهة الجنوبية من الكوخ. وبدأ البحث بتيقظ شديد ولكنه لم يجد شيئاً ذا بال. ومثلما حصل مع دونالد، بعدما تعب من البحث وكان على وشك العودة، إذا به يسمع صوتاً، أو خيّل إليه أنه سمع صوتاً غريباً. كانت ضوضاء غريبة تشبه الضحك سمعها وهو يمر خلف أحد أصناف النباتات في ظل الجدار. تفحص مصدر الصوت عن قرب فعرف أنه دجاجة رمادية اللون، زائغة النظرات، تجلس بين الأعشاب، لها عرف أحمر زاه ومنقار أصفر، ومن عينيها تبدو تلك النظرة الغريبة، وكانت لا تشبه الدجاجات الأخرى وخاصة عندما تركز نظراتها على الغريب. أدرك دوغالد على الفور أن الطير كان من غير شك خارجاً عن المألوف.

قال: «يا إلهي، أي نوع من الطيور أنت؟».

قالت الدجاجة: «أنا دجاجة الرعد».

«ماذا؟».

«أعتقد أني أجبت بصوت واضح، أنا دجاجة الرعد».

«آه، حسناً أستميحك عذراً، نعم لقد فعلتِ وقد سمعتك، ولكني مندهش حقاً، فقد اعتادت أمي أن تربي الطيور في المنزل لفترة طويلة ولكني لم أر مثلك من قبل».

«إذن غطني بشيء ما واتركني في الظلام لبعض الوقت ثم افتحه فجأة وستعرف حقيقة الأمر».

لم يشأ دوغالد أن يرفض هذا الطلب الذي اقترحته الدجاجة بلباقة، ناهيك عن فضوله الجامح بشأنها.

فقام بوضع قناع على رأس الدجاجة وعد تقريباً إلى العشرين ثم رفعه فجأة.

إذا قلنا بأنه دهش من الصوت المرعب الذي أحدثته الدجاجة، فلن يكون هذا هو التعبير المناسب، لأنه ارتعب، وكاد أن يفقد وعيه، فلم يسمع في حياته صوت رعد بهذه القوة، أو صدى بهذه القوة عبر الجبال مثل الصوت الذي صدر مباشرة

من تحت أنفه، كما تكرر الصوت عندما انحنى ليرفع القناع عن رأس الدجاجة ووصل الضوء إلى الريش الأحمر لعرفها، فسقط دوغالد على ظهره من الصدمة والخوف.

سألته الدجاجة: «ما رأيك الآن؟».

قال وهو ينهض نافضاً التراب عن ملابسه: «اسم على مسمّى، لا تفعلي هذا ثانية من دون ان تنذريني، فقد تكونين رفيقة نافعة في المآزق إذا استطعت أن ترعدي هكذا عندما يطلب منك ذلك».

قالت الدجاجة: «حسناً إذن اتخذني رفيقة، فأنا أشعر بالبرد والوحدة هنا على كل حال».

«أستطيع أن أحملك في حقيبتي إذا كنت لا تمانعين».

«رائع، لكن احرص على ألا تغطي رأسي أو سوف يروعك الدويّ حين لا تتوقع ذلك».

وهكذا وضع دوغالد دجاجة الرعد في الحقيبة تاركاً رأسها خارجاً من فتحة في أعلاها. ومضى يبحث عن أخويه تغمره السعادة بما وجده.

أما دانكن الأخ الأصغر فقد ذهب كما هو مخطط ليبحث في الجهة الشرقية من الجبل ليرى إذا كان يستطيع أن يعثر على الكنز، ومثله مثل الآخرين لم يطل به الأمر حتى تعب من البحث ولم يجد سوى أكوام من الحجارة، تنمو بينها نباتات برية، وكومة من الحطب قد وضعت في الزاوية وقوداً للنار. حرّك الأعشاب بقدمه ليرى إذا ما كان هناك شيئاً مخبأً هناك وراح يضرب الأرض قدمه ليسمع أي صوت يوحي بوجود فراغ في جوف الأرض، ولكن ذهب كل جهوده عبثاً. شعر بالاستياء، ولأنه لم يكن يأبه بأن يهزم في أي عمل يقوم به، وكمحاولة أخيرة قبل أن يستسلم لليأس، أخذ عصاً طويلة من كومة الحطب وبدأ يمشط بها الأرض بطريقة عشوائية.

وكم كانت دهشته كبيرة عندما ظهر من بين حزمة القضبان خنزير زهري اللون، له عينان كالخرز، وخطم أسود كخشب الأبنوس.

قال دانكن: «لابد أنك تجد العيش على قمة هذه الهضبة بارداً جداً خاصة في هذا المأوى البائس وسط كومة من العيدان».

قال الحيوان: «لست من نسل الخنازير المعروفة».

«هل تعتبرها وقاحة إن سألتك من أي سلالة أنت إذن؟».

«أبداً، أنا خنزير الرعد، في خدمتك».

«وأي نوع من الخنازير هذا؟».

«إذا أردت أن تعرف، فقبلني مرة بين عيني وهذا سوف يوفر عليّ الكثير من الشرح».

لم يكن دانكن معتاداً على تقبيل الخنازير بين عينيها أو في أي مكان آخر، ولكنه اعتقد أنه من الأفضل ألا يرفض طلب الخنزير، فقد كان خطأه أنه أزعجه ولا يعرف المرء ما الذي يمكن أن يلقاه حين يتعامل بلطف مع الناس أو الحيوانات، ثم أن الخنزير بدا نظيفاً على عكس سائر الخنازير.

لهذا فقد قبّله بين عينيه.

وفي اللحظة التالية وجد دانكن نفسه مرمياً على الأرض من هول الصدمة، فعندما صرخ الخنزير صدر دويّ مروع لم يسمع مثله في حياته. وخيّل إليه أن الجبال قد رددت الصدى لدرجة بدت وكأنه لن يتوقف، وكأن كل جبل كان يخبر به الجبل الآخر.

قال دانكن والجزع لا يزال يملأ محياه والكدمات تملأ مرفقيه: «من حسن الحظ أنك لا تبرق أيضاً، أفضّل أن اتخذك صديقاً على أن تكون عدوي في يوم من الأيام».

«يعجبني كثيراً الخيار الأول، لا أمانع البتة في الذهاب معك كرفيق، فقد سئمت الحياة هنا».

«وأنا أيضاً سأكون سعيداً برفقتك، والآن دعني أعرفك على أخوي فها هما يتجهان نحونا».

وهكذا التقى الإخوة الثلاثة وقصّوا على بعضهم بعض ما حدث معهم، ثم عرفوا بعضهم على رفاقهم الجدد. وحين لم يعد لديهم ما يفعلونه على قمة الهضبة هبطوا إلى سهل «جلين».

وحتى إلى يومنا هذا ما زال دوي الرعود يتردد على هضبة «بين إيبيريس» أكثر من أي هضبة أخرى في المنطقة، وعندما يبلغ صوت العاصفة أقصاه، تصيح ربات المنازل في روناتش: «اسمعوا، أنها ساحرة بين إيبيريس تعمل مع خدمها الرعود». وما زال الناس يتجنبون الذهاب إلى تلك الهضبة إلى يومنا هذا.

يمم الإخوة الثلاثة وأصدقاؤهم الجدد شطر الغرب طوال تلك الظهيرة، وعندما وصلوا إلى وادي «جلين نيفيس» كانت الشمس قد شارفت على الغياب. ولهذا فقد قضوا ليلتهم تحت ظلال «بينين بيغ» حيث من المستحيل أن يجازفوا بعبور «جلين» بعد هبوط الظلام، فحتى الثعالب تخشى الرجال الثلاثة الخضر الذين يستوطنون هناك. ويُحكى أنهم يهاجمون المسافرين بوحشية وعنف.

٢.

في الصباح الباكر استيقظ الإخوة الثلاثة بصورة غير متوقعة. كان دوغالد قد وضع دجاجة الرعد تحت غطائه ناسياً تماماً أنه يجب ألا يكشف الغطاء عن رأسها فجأة، ولكن ذلك حدث بشكل غير متوقع. فمع شروق الشمس هبّ نسيم خفيف على الوادي، فشدّ طرف الغطاء قليلاً، وتسرب شعاع من الضوء على عرف الدجاجة، مما جعلها تصيح كما كان سيفعل أي طائر.

جلجلت الجبال بالصوت الذي أطلقته الدجاجة. فقفز الإخوة من نومهم مذعورين، وذعر الناس الذين يسكنون في الجوار، وأطلّوا برؤوسهم من نوافذ أكواخهم قائلين لبعضهم بعض: «ماذا! رعد والسماء صافية، يا للغرابة!». والجميع دون استثناء من بشر وحيوانات أفاقوا في ذلك الصباح في وقت أبكر من المعتاد.

ولكن أبطالنا يعرفون تماماً ما كان سبب الرعد، ولهذا لم يعيروا الأمر اهتماماً، بل حملوا حقائبهم على ظهورهم وتابعوا طريقهم والخنزير يهرول بجانب دانكن.

لم يطل بهم الطريق كثيراً حتى بدا لهم من بعيد كوخ أول رجل أخضر. كان الكوخ شبه دائري، له سقف مسطح لكنه من دون نوافذ، لأن ساكني الكهوف وأمثالهم لا يتحملون إلاّ القليل من الضوء. لا شيء يكسر استواء مظهر الكوخ سوى باب صغير منخفض مكوّن من ثلاث بلاطات حجرية واحدة من كل جانب، والثالثة على العتبة، وكان الباب صغيراً لدرجة أن المخلوق الشرير لا يستطيع دخوله إلا منحنياً.

قال دانكن لدونالد: «الآن، اذهب وجرب حظك مع أول رجل أخضر، وأنا ودوغالد سننتظرك هنا حتى تعطينا إشارة أو تطلب المساعدة، فسنكون على أتمّ الاستعداد لذلك».

وافق دونالد دون جدال، فرغم أن دانكن هو الأصغر لأنه الأذكى، كما أخبرتكم بذلك من قبل.

وهكذا حمل دونالد حقيبته التي تحتوي على نبتة الرعد، وذهب إلى الكوخ وطرق الباب بقوة.

قال الشرير من الداخل: «لا يوجد أحد في المنزل، ارحل».

قال دونالد: «ولكني أريد أن أرى لا أحد»، ورفس الباب ودخل.

وفي الداخل رأى مارداً بشعاً جالساً قرب النار. كانت له عينان خضراوان ويرتدي عباءة خضراء، ينسدل فوقها شعره الأخضر المجدول.

قل المارد: «هذه خديعة بشعة تلعبها في بيوت الآخرين، ماذا تريد؟».

أجاب دونالد: «جئت أبحث عن عمل، ربما تحتاج إلى خادم».

«لا، لا، ارحل فحسب، فأنا بالكاد أجد متسعاً لنفسي هنا».

قال دونالد: «لدي اقتراح، أنا جنائني ممتاز، وأستطيع أن أشذب حقل اللفت خاصتك في لحظة. فهو غير مرتب وشكله بائس، وأنا متأكد أنه بحاجة إلى ترتيب».

قال المارد بطريقة مهذبة لم يتوقعها دونالد: «حقاً! حسناً إذن، اذهب وابدأ بحرث الحديقة، هيا يمكنك أن تبدأ فوراً».

في الحقيقة كان عقل المارد مشغولاً ومرتبكاً في ذلك الصباح، وشعر أنه غير قادر على الجدال بعد أن سمع دويّ الرعد (وكما تعلمون فالرعد هو العدو القاتل لتلك الكائنات)، ولذلك

أراد أن يتخلص من الزائر المتطفّل بأي ثمن، كما أنه كان يخطط بأنه حالما يخرج دونالد من الباب، فسيكون بإمكانه إيصاده من الداخل، وإذا ما استطاع دونالد أن يدخل ثانية فسيكون ذلك أكثر من مفاجئ للمارد.

ولكن ما إن خرج دونالد من الباب حتى نظر حوله بحذر، وفي اللحظة التي شرد نظر المارد عنه، قام بزرع نبتة الرعد بسرعة في وسط الحديقة، بين الكوخ والطريق.

وفي لحظة رفعت نبتة الرعد ساقها، وفردت أوراقها حولها، وعلى قمة الساق تفتحت الزهرة كالعملاق.

صاح دونالد: «يا إلهي! تعال، تعال يا سيدي وانظر إلى هذه الزهرة الجميلة التي نمت في حديقتك؟».

قال المارد محدّثاً نفسه: «لن أخرج». ولكن دونالد استمر بندائه مكرراً قصة الزهرة. فقال الكائن لنفسه حسناً لم لا أنظر وأرى ماذا هناك، فنهض واختلس النظر من شق الباب.

وكم دهش حين رأى تلك الزهرة الجميلة الضخمة. ولم يستطع أن يخمن كيف وصلت إلى هناك، فهو لم يرها من قبل، وكان على استعداد للتضحية بحياته ليعرف قصتها فالمردة من

بين جميع الكائنات هم الأكثر فضولاً، ورغم أنهم لا يفقهون شيئاً، إلا أنهم يريدون دائماً أن يفهموا كل شيء.

من شدة فضوله نسي المارد خوفه من العاصفة الرعدية، وفتح الباب وأخرج رأسه البشع منه. وسأل دونالد: «وما فائدة هذه النبتة؟».

«آه! إن هذه الزهرة لها أجمل رائحة، لن تشم مثلها قطّ، اخرج إلى هنا وتنشق عبقها».

«شمّها أنت».

«لقد فعلت للتو، وكانت رائحتها مدهشة! يجب أن ترى ذلك بنفسك».

قال الكائن: «أحضرها إلى هنا، لأنني لن أخرج من أجلك، أو من أجل أي زهرة».

قال دونالد: «حسناً إذن، سوف أحمل النبتة معي إلى مكان آخر في وادي جلين إذا كنت تعتقد أنها لا تستحق أن تخرج لمجرد شمها».

مجرد فكرة أن أحداً سيأخذ شيئاً يخصه أغضبت المارد، بالإضافة إلى أن رغبته في شم الزهرة قد استحوذت عليه، فأقنع نفسه أن لا ضير إذا خرج مسافة قصيرة ليشم الزهرة، ففتح الباب وانسلّ خارجاً يتهادى إلى حيث الزهرة ثم شمها بقوة بخطمه البشع.

بانغ! وتعرفون ما الذي حدث بعد ذلك.

لكن المارد ظن أن الرعد قد قصف تحت أنفه -في الحقيقة هذا ما حصل- فولّى هارباً إلى كوخه لا يلوي على شيء، لدرجة أنه نسي أن يحني رأسه وهويدخل الباب الواطئ، فصدم رأسه بعارضة الباب وسقط ميتاً عند العتبة، وتلك كانت نهايته.

بعد ذلك صاح دونالد منادياً أخويه فأسرعا إليه، ثم نهب الإخوة الثلاثة الكوخ. وكما توقعوا وجدوا الكثير من المجوهرات والحلي من الذهب والفضة مخبأة في الزوايا الأربع، بالإضافة إلى كومة من الكريستال الأحمر لا يقدّر بثمن، كانت مخزنة تحت حجر الموقد.

قال دانكن: «الآن دونالد، أنت ستبقى هنا، وتحرس ما كسبته بجهدك بينما سنتقدم قليلاً أنا دوغالد ونجرب حظنا مع الماردين الآخرين في وادي جيلن».

وهكذا لوح دونالد لأخويه مودعاً وهما يهبطان الوادي تحت ظلال جبل «بين نيفس».

وسرعان ما رأيا برجاً دائرياً يشبه الأول بُني في منتصف الوادي بجوار الطريق.

قال دانكن: «هذا بيت المارد الأخضر الثاني، اذهب أنت يا دوغالد وجرب حظك، وسأنتظرك هنا مع خنزير الرعد حتى تناديني».

ذهب دونالد ودجاجة الرعد تطل رأسها من حقيبته.

صاح دوغالد وهو يطرق الباب الصغير الواطئ بعصاه: «أمن أحد في الداخل؟».

أجاب صوت أجش، عرف دوغالد أنه صوت المارد: «لا، امضِ في شأنك».

قال دوغالد: «أريد أن أقول لك كلمة قبل أن أمضي».

«ستكون هذه آخر كلمة تقولها إذا لم تمض من هنا».

قال دوغالد: «بصراحة، لن أتحرك من هنا، يجب أن أتكلم معك وسوف أفعل! فأنا طباخ ماهر وأطبخ الحساء من لا شيء، وقد قصدتك بحثاً عن عمل».

فكر المارد للحظة، فمنذ يوم أو يومين لم يتناول وجبة جيدة بسبب الرعد، وخاصة الرعد العنيف الذي سمعه صباح البارحة، وبما أنه يشعر بالجوع ولا يستطيع الخروج بحثاً عن الطعام، ولمجرد سماعه كلمة الحساء فقد سال لعابه، كما قال لنفسه: «ما الذي سيجعلني أخشى هذا المتطفل؟ إذا أخفق في طبخ الحساء فلن أتوانى عن قتله، وسأصنع منه حساءً».

ثم قال بصوت عال: «حساء، حقاً! حسناً، اطبخ الحساء وقدمه لي، ولكن إذا لم أجده لذيذ المذاق، فسواء أكنت طباخاً أم لا، سأقطع رأسك فوراً». ثم بدأ يشحذ خنجره بحجر العتبة إثباتاً كلامه.

قال دوغالد: «لا تقلق سوف تجده لذيذاً كما تشتهي ولن تنسى طعمه بسهولة، أعطني القدر مع غطائه».

أعطاه المارد القدر والغطاء، فحمله دوغالد متظاهراً بأنه سيملؤه بالماء بسرعة. ولكن ما إن وصل إلى الضفة وصار بعيداً عن عيني الكائن، حتى وضع دجاجة الرعد في القدر وأحكم فوقها الغطاء».

ثم عاد بالقدر إلى الكوخ ووضعه على الأرض أمام المارد. ثم قال له: «أحضر الآن ملعقتك، وانتظر حتى أعد إلى العشرين، ثم ارفع الغطاء وانظر أي نوع من الحساء طبخت لك. ثق بكلامي يا صديقي سوف لن ترغب بعده بتذوق أي حساء آخر».

«واحد، اثنان، ثلاثة،» عدّ دوغالد ولم يكد يصل إلى العشرين» حتى فقد المارد صبره، فرفس الغطاء وغمس ملعقته الحديدية في القدر، وحرك دجاجة الرعد التي كانت تقبع بهدوء في القعر.

وفجأة، سقط الضوء القادم من المدخنة على العرف الأحمر لدجاجة الرعد، فصرخت ذلك الصوت الذي اهتزّ له الكوخ، كأن صاعقة قد ضربته.

ارتعب المارد، فصرخ وركض باتجاه الباب لأنه اعتقد أن النار تهب من السقف. ومن شدة الفزع نسي أن يحني رأسه فاصطدم بعارضة الباب وخرّ صريعاً عند العتبة، وكانت تلك نهايته.

بعد ذلك، صاح دوغالد منادياً أخاه الذي كان يحرسه من مسافة بعيدة، وركض دانكن وخنزيره بسرعة إلى الكوخ.

وهناك نبش الأخوان كنز العملاق من مجوهرات وحلي ذهب وفضة كانت مخبأة في زوايا الكوخ الأربع، وحجر توباز[1] كبير يساوي ثروة ملك، كان مخبأ تحت حجر الموقد.

قال دانكن: «الآن، ابقَ هنا واحرس ممتلكاتك، بينما أذهب أنا إلى نهاية الوادي ومعي خنزير الرعد. انتظرني حتى أعود - ومعي الكنز كما أرجو- ثم نمر بدونالد ونعود جميعنا إلى البيت».

بقي دوغالد في كوخ المارد الثاني، وذهب دانكن وخنزير الرعد على طول الوادي باتجاه البحر. وتماماً كما توّقع، فحالما خرج من الوادي حتى لاح له من بعيد على جانب الطريق كوخ يشبه تماماً الكوخين السابقين. كان الكوخ مطوقاً بسياج حجري، ولم يبد هناك ما يدلّ على الحياة، وكان شكل الكوخ بغيضاً لدرجة أن دانكن قرر أن يستطلع المكان من كل الجوانب قبل أن يطرق الباب.

قفز عن السور وانسل بصمت حول الكوخ. هناك وعلى مستوى رأسه، شاهد نافذة تتسع للزحف منها إلى الداخل أو الخارج، وقد سدّت بالعشب المتشابك والمجدول كالقضبان.

(1) نوع من الأحجار الكريمة (م).

قال دانكن: «أشعر بأن هذه ستعود عليّ بالنفع». ثم طلب من خنزير الرعد أن يربض تحت النافذة ويبقى هادئاً حتى يناديه.

فاستجاب الخنزير لأوامره.

ثم ذهب دانكن إلى الباب الأمامي وطرق الباب مرات ولكنه لم يسمع جواباً. ولكنه كان متأكداً أن المارد في البيت، لأن تلك الكائنات لا تحب الخروج في وضح النهار، بل تفضل الظلام والعتمة ولا تخرج إلا ليلاً.

قال دانكن: «إما أن يكون هذا المارد مصاباً بالصمم أو أنه غير لبق». ثم ركض ورفس الباب بكل قوته فسقط الباب إلى الداخل، وطار المزلاج والترباس إلى وسط الحجرة.

صاح المارد المخيف: «أنت أيها الوغد عديم الفائدة، كيف تجرؤ على اقتحام بيتي هكذا؟»، وكان قد أطل برأسه من وراء كومة من القش موضوعة في الزاوية، بعد أن وجد أنه لم يعد هناك فائدة من إخفاء نفسه.

«كيف تجرؤ على رفس أثاثي في أنحاء الحجرة هكذا؟ ألم تتعلم التهذيب؟ دعني أقل لك إذا كان والداك قد علماك شيئاً عن التهذيب، فحتماً قد علّماك إياه بالمقلوب».

قال دانكن بلهجة فيها الكثير من الهدوء ورباطة الجأش: «آه، لقد سمعت بأنك تشعر بالوحدة وأتيت لزيارتك زيارة ودية عابرة».

صاح المارد: «من قال لك إني أشعر بالوحدة؟ لا أشعر بالوحدة إطلاقاً، هل تسمعني؟ أنا لا أشعر بالوحدة! ولست أبالي حتى لو لم تعُدْ ثانية البتة!».

فكّر دانكن: «آها! عمن يتحدّث هذا المارد؟». ووجّه كلامه إليه: «حسناً إذن، هي لم تعد بعد، لقد أثرت فضولي؟».

صاح المارد وكأنه لا يريد رؤية منظر مروّع: «صه! صه! أرى أنك تعرف كل شيء عن الموضوع. لا، هي لم تعد بعد، ولكنني أشعر أنها سوف تعود. انظر ماذا فعلت هذا الصباح»، وأشار إلى الأثاث المحطّم وقطع الفخار المنثورة على الأرض.

ويجب أن تعرفوا بأن المارد كان قد تشاجر مع زوجته شجاراً عنيفاً، انتهى إلى طرده لها من الكوخ، وقد ذهبت وهي تزبد وترعد، وهددته بأنها ستعود قريباً مع أخيها القوي وسوف تنتقم منه.

قال دانكن: «إذن، كان هذا سبب الهرج والمرج الذي سمعته قبل قليل في الوادي، أنا متأكد أنها ستصل عما قريب».

قال المارد وقد استولى عليه الخوف: «آه! حسناً، لا تقل هذا، إنك تخيفني! ماذا عليّ أن أفعل؟ بمَ تنصحني؟ أنت لا تعلم كم أن زوجتي لئيمة وعدوانية وحقودة».

قال دانكن ساخراً بينه وبين نفسه من إفشاء المارد سره بهذه السهولة: «حسناً، سأنصحك ماذا تفعل، أولاً سوف أرتب البيت وأزيل آثار الشجار، أنت اهتم بهذه الغرفة وأنا سأرتب تلك الحجرة، فأنا سريع كوني خادم منازل. وبعد ذلك ألا ترى معي أنه يمكنك عندما تعود زوجتك لتثأر منك على ما فعلته في الصباح، أن تقول لها بكل بساطة إنها رأت الأمر كله في حلمها».

قال المارد وقد بدا عليه الارتياح: «رائع! سوف تحصل على مكافأة مجزية إذا نجحت الحيلة». ولكن كونوا أكيدين أن هذا المخلوق الشرير لم يكن ينوي مكافأته إلا بضربة على رأسه حين تسنح له الفرصة.

وهكذا ذهب دانكن إلى الفجوة التي في الجدار حيث توجد النافذة، فرأى فراش زوجة المارد مكوماً على الأرض بغير

ترتيب. وبينما كان الكائن مشغولاً بترتيب الحجرة الكبيرة، صفر دانكن منادياً الخنزير فأتى مسرعاً إلى النافذة. حمل دانكن الخنزير وأدخله من بين العيدان التي تغطي النافذة وجعله يربض بين أغطية الفراش.

ثم وضع قلنسوة النوم الخاصة بالمارد على رأس الخنزير، ورفع الغطاء ليغطي عنقه، فلم يعد يظهر سوى وجه زهري تحت قلنسوة النوم. أمر الخنزير أن يبقى صامتاً حتى يأمره بغير ذلك.

ركض دانكن إلى وسط الحجرة وهو يصيح: «يا ويلي! لقد حدث شيء غريب، أحدهم ينام في الفراش، لابد أن زوجتك قد عادت دون علمك».

صلح المارد مصدوماً: «لا تقل هذا!».

«ولكن هذا ما جرى».

«ماذا عليّ أن أفعل؟ لن تمانع إذا طلبت منك أن ترتدي ثيابي وتتظاهر بأنك أنا لبعض الوقت وأنا سوف اختبأ. نعم افعل هذا وسوف أجزيك تعبك. سوف تكون فظيعة عندما تصحو. يجب أن أجد ثياباً تناسبك!».

قال دانكن: «هذا هراء! لدي خطة أفضل بكثير، إنها فرصتك المناسبة. فقط ادخل إليها بهدوء وأيقظها بقبلة قوية بين عينيها - وثق بي- سوف تنسى أمر الشجار تماماً».

قال المارد: «أتعتقد ذلك؟ لست واثقاً من ذلك فهي حقودة ولا تنسى الانتقام».

قال دانكن: «بالطبع أراهن بحياتي على أنك ستنجح في مصالحتها، أعدك إذا لم تنجح الخطة فسوف أتزوجها بنفسي». وضحك دانكن في سره لأنه بدا ممثلاً بارعاً صادقاً في ما يقوله.

قال المارد: «حسنا سأعمل بنصيحتك!». ثم مشى على أطراف أصابعه باتجاه فراش زوجته. لا شك في أنه رأى شيئاً زهرياً يغط في النوم في فراش زوجته، لكن كان فكره مشغولاً بفكرة ألا تستيقظ زوجته قبل أن يقبلها قبلة المصالحة، لذلك لم يفكر كثيراً في أن يتأكد من أن زوجته هي النائمة في الفراش، فانحنى فوق الشخص النائم، وقبله بقوة بين عينيه، قائلاً بمرح: «استيقظي يا حبيبتي، استيقظي!».

ولكن... بانغ! بانغ! بانغ! كاد قلب المارد ينخلع من مكانه من قوة الصوت، فأسرع لا يلوي على شيء وبخطوتين فقط قطع

الحجرة ووصل إلى الباب، وكما حدث مع الاثنين الآخرين، نسي من فزعه أن يحني رأسه فارتطم بعارضة الباب المنخفض، وسقط كومة بشعة هامدة عند العتبة، وكانت تلك نهايته.

حسناً لم يطل الأمر بدانكن كثيراً حتى وجد مكان الكنز، خاصة وأنه أصبح يعرف أين يبحث الآن. كانت المجوهرات والحلي والذهب والفضة في الزوايا الأربع للكوخ، بينما وجد تحت حجر الموقد ثلاثة أكياس من اللؤلؤ شفافة ونقية، لابد من أنها جُلبت من محارات بحر ليفن.

وهكذا ملأ حقيبته وجيوبه بالكنز ثم صفر لخنزير الرعد وعاد أدراجه إلى كوخ الكائن الثاني، حيث كان أخوه دوغالد بانتظاره، ثم تابعا طريقهما معاً إلى الكوخ الأول حيث كان الأخ الأكبر دونالد يتوقع قدومهما.

مضى الإخوة الثلاثة يغمرهم الفرح وهم يتبادلون التهاني قاصدين ديارهم رانوتش. وعلى الطريق لم يكف دانكن عن التباهي بذكائه في إدارة الأمور خلال رحلتهم، وكيف تدبر أمره هنا وهناك. وكان الأخوان يوافقانه كل ما يقوله، فعلى الرغم من أنه الأصغر سناً ولكنه كان الأكثر ذكاءً، وهكذا... عذراً نسيت أني أخبرتكم هذا من قبل.

وكم كانت فرحتهم كبيرة عندما لاحت لهم من بعيد بحيرة روناتش تتلألأ مع بداية الغروب، ثم رأوا من جديد قريتهم الصغيرة، وسمعوا غناء أبو الحناء على شجر التنوب. ثم شاهدوا أمهم العجوز وهي تجمع الغسيل المنشور على أغصان الغبيراء، فقد كان يوماً صيفياً مشمساً وكان نسيم غربي ناعم يهب بعد العاصفة الرعدية.

تفاجأت الأم كثيراً برؤيتهم، وقد عادوا بهذه السرعة مع كائناتهم الغريبة وحقائبهم المليئة. قبّل الأولاد الثلاثة أمهم وقبّلتهم بدورها ورحبت بعودتهم سالمين.

أخبروها قصتهم، وأروها كنوزهم، وهنأوا أنفسهم لأنهم لن يضطروا بعد الآن لمغادرة قريتهم الحبيبة روناتش.

ماذا؟ لن تكونوا راضين حتى تعرفوا ماذا حل بمخلوقات الرعد؟ آه! حسناً! أعتذر نسيت أن أخبركم ذلك.

في الصباح التالي ذهب دانكن وأخواه لتفقد الزريبة التي خلف الكوخ، حيث وضعوا رفاقهم تلك الليلة، ويا لدهشتهم! فقد وجدوا شاباً وسيماً يرتدي ثياباً من الطرطان[1] يقف عند الباب، وإلى جانبه شابتان جميلتان.

(1) نوع من القماش تصنع منه الثياب الاسكتلندية التقليدية (م).

قال الشاب: «اسمح لي أن أعرفك بنفسي، أنا ماك سويني من وادي مويك وهاتان أختاي فلورا وفيولا اللتان عرفتهما على أنهما زهرة الرعد ودجاجة الرعد ولا داعي لأن أضيف أنني خنزير الرعد. لقد سحرتنا ساحرة بين إيبريس وقد حررتمونا من عبوديتنا، ولهذا تقبلوا فائق شكرنا وامتناننا».

بعد أن انتهى من كلامه انحنى الشاب احتراماً كما انحنت الفتاتان اعترافاً بالجميل.

واتجه دونالد إلى فلورا ودوغالد إلى فيولا ورجوهما أن تبقيا معهما وطلبا منهما الزواج منهما. وافقت فلورا وفيولا وقالتا بلطف: «شكراً لكما بالطبع نوافق». أما دانكن بعد أن سمع ورأى ما حدث فقد عاد إلى الكوخ، وجلس بجوار أمه وخبأ رأسه في مئزرها ورفض أن يكلم أحداً.

وجد دونالد ودوغالد فرصتهما للسخرية من دانكن للمرة الأولى. فتلك كانت أول مرة يناله سوء الحظ فيها وقد حصل كل منهما على زوجة جميلة، ولم يحصل هو على زوجة رغم ما يتميز به من ذكاء. ولكن دانكن لم يكن سعيداً بما حدث له لدرجة أن ماك سويني لاحظ ذلك، واقترب

منه قائلاً: «لا تحزن، لي أخت في البيت وهي لا تقل جمالاً عن فلورا وفيولا، سأحضرها فوراً لتكن زوجتك وستكون سعيداً كأخويك».

وهذا ما حدث وتناقل الناس قصة الإخـوة الثلاثة الذين تزوجوا في يوم واحد، وقد أعدوا وليمة عرس كبيرة. وكيف لا، ألم يحظوا بكنوز العمالقة الثلاثة التي تتيح لهم إقامة أفخم الولائم؟

فقط آمل أن تكون العرائس قد نسين حيل الرعد تلك، ولم يطلقوا رعودهن على ضيوف العرس.

حكايات الأطفال

حكاية الحمل الأبيض[1]

كان يا مكان في قديم الزمان، كان هناك فلاح لديه حمل أبيض. وعندما اقترب عيد الميلاد، فكر الفلاح في أن يذبح الحمل. وسمع الحمل بذلك، فقرر أن يهرب قبل أن يحين الموعد. وهرب فعلاً.

لم يطل به الأمر كثيراً حتى التقى ثوراً، حياه قائلاً: «مرحباً أيها الحمل الأبيض، إلى أين أنت ذاهب؟».

«إلى بلاد الله الواسعة، لقد قرروا أن يذبحوني في عيد الميلاد، لذا فكرت أن من الأفضل أن أهرب».

«من الأفضل إذن أن أذهب معك، لأنهم كانوا سيفعلون بي الشيء نفسه».

أجاب الحمل: «على الرحب والسعة، كلما زادت الرفقة كبرت المتعة».

(1) كامبل، الحكايات الشعبية الشائعة في المرتفعات الغربية.

وتابعا طريقهما حتى التقيا كلباً.

قال الكلب: «مرحباً أيها الحمل الأبيض»

«مرحباً بك أيها الكلب».

«إلى أين أنت ذاهب؟».

«أنا هارب من المنزل، لأني سمعتهم يتوعدون بذبحي في عيد الميلاد».

«يا للهول، لقد حدث معي الشيء نفسه، سوف أذهب معك إذن».

«هيا! أهلاً وسهلاً بك».

مضى الثلاثة في طريقهم حتى صادفوا قطة، قالت: «مرحباً أيها الأصدقاء».

«مرحباً بك أيتها القطة».

«إلى أين أنتم ذاهبون؟».

«أبحث عن مكان أفضل، لأنهم قرروا ذبحي في عيد الميلاد».

«سمعت أهل المنزل الذي أعيش فيه يتحدثون عن ذبحي أنا أيضاً وفكرت أنه من الأفضل أن أهرب».

«انضمي إلينا إذن».

تابع الجميع طريقهم حتى صادفوا ديكاً. قال: «مرحباً أيها الحمل الأبيض!».

«مرحباً بك أيها الديك».

«إلى أين أنت ذاهب؟».

«أنا هارب، لأنهم توعدوا بذبحي في عيد الميلاد».

«لقد قرروا ذبحي أيضاً في الموعد نفسه، لذا سوف أرافقك».

«هيا بنا إذن».

تابعوا طريقهم حتى التقوا إوزة. قالت: «مرحباً أيها الحمل الأبيض!».

«مرحبا بك أيتها الإوزة».

«إلى أين أنت ذاهب؟».

«أنا هارب، لأنهم قرّروا ذبحي في عيد الميلاد».

«لقد قـرّروا أن يفعلوا الشيء نفسه معي، لذا سأذهب معك».

تابع الجميع سيرهم حتى حلول الليل، وما إن رأوا ضوءاً من بعيد حتى اتجهوا نحوه. ورغم أنه بدا بعيداً جداً، لكنهم سرعان ما وصلوا إليه. عندما وصلوا إلى البيت، قرروا أن ينظروا من النافذة أولاً، ليروا إذا ما كان هناك أحد في المنزل. نظروا من النافذة، فرأوا لصوصاً يعدون نقوداً. فاقترح الحمل الأبيض على الجميع: «ليصرخ كل منا بصوته، فأنا أثغو والثور يخور والكلب ينبح والقطة تموء والديك يصيح والإوزة تقوقئ». وهكذا أطلقوا معاً صرخة واحدة.

وعندما سمع اللصوص الصرخة من الخارج، ظنوا أن خطراً كبيراً يحدق بهم، فتركوا النقود وولوا الأدبار إلى الغابة المجاورة. وحالما رأى الحمل الأبيض وصحبه البيت خالياً، دخلوا وأخذوا النقود التي تركها اللصوص، واقتسموها فيما بينهم، ثم قرّروا أن يرتاحوا قليلاً.

فقال الحمل الأبيض: «أين ستبيت ليلتك أيها الثور؟».

«سأنام خلف الباب كما اعتدت أن أفعل، وأنت؟».

«أنا سأنام في وسط الغرفة كما اعتدت أن أفعل؟».

ثم سأل الكلب: «وأنت أيها الكلب أين ستنام؟».

«سوف أنام قرب الموقد كما أفعل دائماً».

«وأنت أيتها القطة أين ستنامين؟».

«سوف أنام في علبة الشمع حيث أحب دائماً أن أنام».

«وأين ستنام أنت أيها الديك؟».

«كما هي عادتي سوف أنام على عارضة السقف».

«وأنت أيتها الإوزة أين ستنامين الليلة؟».

«أنا معتادة على النوم على قرب الروث وهذا ما سأفعله الليلة أيضاً».

نام الجميع، ولم تمض سوى مدة قصيرة ، حتى عاد أحد اللصوص ليتفقد المنزل، ويرى إذا ما كان هناك أحد. دخل البيت بحذر، وكان الهدوء يعم المكان، فتوجه فوراً إلى علبة الشمع، عله يستطيع إشعال شمعة تنير المكان. وما

إن مد يده داخل الصندوق حتى أنشبت القطة مخالبها في يده، ولكنه ورغم فزعه استطاع أن يأخذ الشمعة. فذهب فوراً إلى الموقد ليحاول إشعالها، فانتفض الكلب على صوت حركته، وكان بالقرب منه إناء ماء، فغمس الكلب ذيله في الإناء وهزه فأطفأ الشمعة. أدرك اللص أن الخطر يتربص به فأسرع باتجاه بالباب، ولكنه عندما مرّ بالقرب من الحمل الأبيض تلقى منه لكمة، وقبل أن يصل إلى الباب رفسه الثور، فأفاق الديك على الجلبة وبدأ يصيح ثم أفاقت الإوزة، وحالما خرج اللص من المنزل حتى لحقته وراحت تضربه بجناحيها على ساقيه.

أطلق اللص ساقيه للريح، وعاد أدراجه إلى الغابة حيث كان رفاقه بانتظاره. سألوه: «كيف جرت الأمور؟»، فأجاب: «دخلت المنزل دون صعوبة، ولكن عندما ذهبت لأحضر شمعة كان هناك رجل في علبة الشمع وغرز عشر سكاكين في يدي، ثم ذهبت إلى الموقد لأشعلها وهناك كان يستلقي رجل أسود ضخم أخذ يرش الماء على الشمعة فأطفأها، حاولت أن أهرب ولكن لكمني أحدهم في وسط الغرفة، وكان هناك آخر خلف الباب رفسني إلى الخارج. وعلى العارضة كان

هناك صبي صغير يصيح: كوكي كوي كي... أرسله إلى هنا وأنا سوف أهتم بأمره، وهناك تلقاني إسكافي، وبدأ يضربني بمئزره على ساقيّ».

فزع اللصوص عندما سمعوا قصة رفيقهم، ولذلك لم يعودوا لأخذ نقودهم الكثيرة التي تركوها. وهكذا أخذ الحمل الأبيض وأصحابه النقود، وعاشوا بسعادة وهناء حتى آخر حياتهم.

الحمامة البيضاء

كان هناك رجل يعمل في الحقول، وكان له زوجة وصبي وبنت. وفي أحد الأيام اصطاد الرجل أرنباً، فأتى به إلى البيت وطلب من زوجته أن تعد به غداءً له. وبينما كانت المرأة تعدّ الغداء، تذوقت الأرنب مرة، ثم ثانية وثالثة، وهكذا ظلت تتذوقه حتى لم يبق منه شيء. وبعد ذلك لم تدر الزوجة ماذا ستفعل من أجل غداء زوجها، وماذا ستقول له، وأخذت تفكر في حل. فنادت على ابنها جوني وقالت له إنها تريد أن تمشط له شعره، وبينما تفعل ذلك ذبحته وطبخته بدل الأرنب.

عاد الزوج إلى المنزل وقدمت له زوجته الغداء، وهو جوني مسلوقاً بشكل جيد. وبينما كان يأكل أمسك بقدم وقال: «هذه بالتأكيد قدم ابني جوني».

فصاحت الزوجة مستهجنة: «ما هذا الهراء! هذه إحدى قوائم الأرنب».

ثم أمسك يداً وقال: «وهذه بالتأكيد يد ولدي جوني».

«إنك تهذر يا زوجي العزيز، هذه أيضاً إحدى قوائم الأرنب».

وبعد أن انتهى الرجل من طعامه، جاءت كاتي الصغيرة أخت جوني، وجمعت العظام ووضعتها تحت حجر عند عتبة الباب.

هناك نمت العظام وكبرت

حتى أصبحت حمامة بيضاء

رفرفت بجناحيها

وطارت بعيداً

طارت الحمامة بعيداً حتى رأت امرأتين تغسلان الثياب، فجلست قربهما على الحجر وبدأت تنوح:

«بو، بو،

أمي ذبحتني،

وأبي أكلني،

وأختي جمعت عظامي،

ووضعتهم بين حجرين أبيضين،

ونمت عظامي وكبرت

وأصبحت حمامة بيضاء كالحليب

ورفرفت بجناحيّ وطرت بعيداً».

قالت المرأتان: «أعيدي علينا ما قلته مرة ثانية أيتها الحمامة الجميلة وسوف نعطيك هذه الثياب».

«بو، بو،

أمي ذبحتني...إلخ

وأعادت ما قالته، وأخذت الثياب وطارت بعيداً حتى رأت رجلاً يعدّ كومة كبيرة من النقود. فجلست قربه وبدأت تنوح:

«بو، بو،

أمي ذبحتني... إلخ

قال الرجل: «أعد علي ما قلت أيها الطائر الجميل وسوف أعطيك كل هذه النقود».

«بو، بو،

أمي ذبحتني.... إلخ

أخذت الحمامة النقود وطارت من جديد حتى رأت رجلين يطحنان الذرة. فجلست قربهما وبدأت تنوح:

«بو، بو،

أمي ذبحتني...

قال الرجلان: «أيها الطائر الجميل إذا قلت ذلك ثانية فسوف نعطيك حجر الرحى هذا».

«بو، بو،

أمي ذبحتني... إلخ

وبعد أن أخذ طائر الحمام حجر الرحى، طار حتى وصل إلى منزل والديه، وحط على السطح. وأخذ يرمي بعض الحصى في المدخنة. فخرجت كاتي لكي تستطلع الأمر. وعندما رآها رمى

الطائر إليها بالثياب. ثم خرج أبوه فرمى إليه بكل النقود، ولكن عندما خرجت أمه رماها بحجر الرحى فقتلها على الفور.

وهكذا ماتت الأم وعاش الأب وابنته:

بسعادة عاشا وبسعادة ماتا

وأبداً من البرتقالة اليابسة لم يشربا.

زواج روبن أبو الحناء والنمنمة[1]

كان هناك قطة رمادية عجوز تتمشى على ضفة النهر، فرأت روبن الصغير أبو الحناء يتقافز على الغصون. فقالت له: «إلى أين أنت ذاهب يا روبن الصغير؟».

أجابها روبن: «أنا ذاهب إلى الملك لأغني له أغنية في صباح عيد الميلاد».

فقالت له القطة: «اقترب مني يا روبن الصغير لأريك الطوق الجميل الذي في عنقي».

ولكن روبن الصغير أجابها: «لا، لا، لقد خدعت الفأرة الصغيرة ولكنك لن تخدعيني أيتها القطة العجوز». وطار روبن ثانية حتى وصل إلى حقل مسور بالأعشاب، وهناك كان يجلس طائر الشوح الرمادي الجشع.

(1) النميمية: طائر صغير جداً (م).

سأله طائر الشوح الجشع: «إلى أين أنت ذاهب يا روبن الصغير؟».

أجابه روبن الصغير: «أنا ذاهب إلى الملك لأغني له أغنية في صباح عيد الميلاد المبارك».

فقال له طائر الشوح الجشع: «تعال إلى هنا يا روبن الصغير وسوف أريك ريشة جميلة في جناحي».

ولكن روبن أجابه: «لا، لا، أيها الطائر الرمادي الجشع، لا، لا! أنت تخيف التفاحي[1] الصغير ولكنك لن تخيفني أنا». ثم طار حتى وصل إلى صخرة كبيرة، وهناك كان يجلس السيد لثعلب.

قال له الثعلب الماكر: «إلى أين أنت ذاهب يا روبن الصغير؟».

أجابه روبن: «أنا ذاهب إلى الملك لأغني له أغنية في صباح عيد الميلاد المبارك».

قال الثعلب أفندي: «تعال إلى هنا يا روبن الصغير وسأريك بقعة جميلة في رأس ذيلي».

(1) التُّفَّاحِيّ: طائر مغرّد يُسَمّى الزُّقَيْقِيَّة (م).

«لا، لا! يا سيد ثعلب، لا، لا! لقد أخفت الحمل الصغير ولكنك لن تخيفني أنا».

وطار روبن الصغير حتى وصل إلى موقد صغير، يجلس إلى جانبه صبي صغير.

سأله الصبي: «إلى أين أنت ذاهب يا روبن الصغير؟».

أجابه روبن: «أنا ذاهب إلى الملك لأغني له أغنية في صباح عيد الميلاد المبارك».

فقال له الصبي: «يا روبن الصغير، تعال إلى هنا وسوف أعطيك بعض فتات الخبز».

ولكن روبن أجابه: «لا، لا! أيها الصبي الصغير لقد أخفت جودسبنك[1] ولكنك لن تخيفني». وهكذا طار روبن الصغير حتى وصل إلى الملك، وهناك وقف على حافة النافذة وغنى أغنية جميلة أعجبت الملك فقال للملكة: «ماذا سنقدّم لروبن الصغير مقابل هذه الأغنية الجميلة؟».

---

(1) طائر خرافي (م).

فقالت الملكة: «أقترح بأن نقدّم له السكسكة [1] فيتخذها زوجة له».

وهكذا تزوج روبن الصغير من السكسكة الصغيرة، ورقص الملك والملكة وجميع حاشية القصر في عرسهما. وبعدها طار روبن الصغير عائداً إلى بيته ليتقافز على الغصون على ضفة النهر ويغني بسعادة.

(1) سُكْسُكَة، صَعْوَة، نُمنِمة، صفراغون (أصغر العصافير) (م).

راشين كوتي

كان في قديم الزمان رجل نبيل يعيش مع أسرته، وكان له ابنتان: الكبرى بشعة سيئة الخلق، أما الصغرى فجميلة حسنة الطباع، لكن كان الوالدان يفضلان الكبرى ويدللانها، في حين يستغلان الصغرى ويسيئان معاملتها، فيرسلانها في كل يوم إلى الغابة لترعى القطيع، ولا يقدّمان لها من الطعام إلا القليل من الثريد ومخيض اللبن.

مرت الأيام والفتاة الصغيرة على هذه الحال، وكان بين القطيع عجل أحمر. وفي أحد الأيام قال لها العجل: «أعطي هذا الثريد ومخيض اللبن للكلب واتبعيني».

فعلت الفتاة ما طلبه منها العجل، وتبعته عبر الغابة حتى وصلا إلى بيت جميل. وهناك كانت تنتظرها مأدبة رائعة فيها من كل ما لذّ وطاب. وبعد أن استمتعا بوجبة شهية عادا أدراجهما إلى القطيع.

ويوماً بعد يوم كان العجل يصحب الفتاة الجميلة لتناول أطايب الطعام، ويوماً بعد يوم كانت الفتاة تزداد جمالاً.

لم يعجب الأمر الأب والأم والأخت الدميمة، وخاب أملهم لأنهم اعتقدوا أن المعاملة القاسية التي تتلقاها سوف تفقدها جمالها، ولكنها تزداد جمالاً، فقرروا أن يراقبوها.

راقبوها طويلاً حتى اكتشفوا أمر العجل وعرفوا سرهما فاعتزموا قتل العجل على الفور. ليس هذا فحسب، بل أجبروها على أن تقتله بنفسها. وكانت خطتهم أن تمسك الفتاة الدميمة بالعجل ثم تحمل الفتاة الجميلة فأساً وتدق عنقه حتى يموت.

حزنت الفتاة الجميلة كثيراً لأنها لم تستطع أن تفعل شيئاً لتحمي العجل، فأخذت تنوح وتندب. لكن العجل الذكي طلب إليها أن تكف عن البكاء، واتفق معها على خطة تخلصه من القتل وتخلصها من شر أسرتها. وقضت الخطة بأن تفعل الفتاة ما أمروها به، ولكن بدلاً من أن تضرب رأس العجل، سوف تضرب رأس أختها الدميمة التي تمسك به، ثم تمتطي ظهره ويهربان. وفي اليوم الموعود جهزت الأسرة كل شيء لذبح العجل، وأمسكت الفتاة الدميمة برأس العجل لتثبته، بينما حملت الفتاة الجميلة الفأس، ولكن بدلاً من أن تضرب رأس العجل ضربت

رأس أختها الدميمة. وفي خضم الفوضى والارتباك، وقبل أن يتسنى للوالدين التقاط أنفاسهما، امتطت الفتاة ظهر العجل وفرا هاربين.

ظل العجل يركض والفتاة على ظهره حتى ابتعدا كثيراً عن البيت، ووصلا إلى مرج فيه الكثير من الأعشاب الجميلة. ولم تكن الفتاة ترتدي الكثير من الثياب، فشعرت بالبرد، فصنع لها العجل معطفاً من العشب ثم تابعا سيرهما.

وسافرا إلى بلاد بعيدة، حتى وصلا إلى قصر ملك، فدخلا إلى القصر وسألا سيدة القصر إن كانت بحاجة لخادمة. أجابت السيدة بأنها تحتاج إلى طباخة، وأنها سوف تستخدم راشين كوتي، وقالت راشين إنها سوف توافق على العمل في القصر إذا احتفظوا بالعجل أيضاً. رحبت السيدة بطلب راشين وعاش الاثنان في القصر. ومرت الأيام بسعادة حتى جاء عيد الميلاد، فذهب الجميع إلى الكنيسة وتركوا راشين كوتي وحيدة في البيت لتعدّ لهم الطعام. وبعد أن ذهب الجميع جاء العجل إلى الفتاة وسألها إذا ما كانت ترغب في الذهاب إلى الكنيسة. فأجابت بأنها بالطبع ترغب في ذلك ولكنها لا تستطيع، أولاً لأنها لا تملك ثياباً مناسبة، وثانياً

لأنها يجب أن تعد الطعام. فقال العجل إنه سوف يأتيها بالثياب وسوف يعدّ الطعام بدلاً منها أيضاً.

خرج العجل وعاد بعد قليل يحمل ثوباً جديداً جميلاً من الحرير والساتان، وخفاً أنيقاً.

فرحت راشين كوتي كثيراً وارتدت الثوب، وقبل أن تغادر أوصت العجل:

«أضف مزيداً من الحطب على النار،

واسلق مزيداً من بيض المحار،

ولا تنسى أن تحرك الحساء في القدر،

ريثما أعود من الكنيسة في هذا اليوم عظيم القدر».

دهش الجميع عندما دخلت الفتاة إلى الكنيسة وتساءلوا من تكون تلك الشابة الجميلة، ولم يعرف أحد أنها راشين كوتي. وفجأة لمحها الأمير فوقع في حبها، وعزم أمره على أن يعرف من تكون قبل أن تغادر الكنسية. لكن راشين كوتي غادرت قبل الجميع، علها تستطيع الوصول إلى البيت قبلهم وتبدل ثيابها وتهتم بأمر الطعام.

وعندما شاهدها الأمير تغادر، تبعها إلى الباب، لكن راشين كوتي اندفعت مسرعة لئلا يفتضح سرها، فتعثرت وسقطت إحدى فردتي حذائها.

لم يستطع الأمير اللحاق بها، لكنه احتفظ بالحذاء. وصلت راشين كوتي إلى القصر، وسار كل شيء على ما يرام، وأثنى الجميع على الطعام اللذيذ.

أصر الأمير على أن يجد صاحبة الحذاء، فأرسل خادماً إلى كل بيت في المدينة ومعه فردة الحذاء، وأمره بأن يجعل كل فتاة تجربه، وقطع وعداً بأنه سوف يتزوج تلك التي يكون الحذاء على مقاس قدمها.

دار الخادم على كل البيوت، ولكن الحذاء لم يناسب قدم أيّ من الفتيات في تلك البيوت. فقد كان صغيراً وأنيقاً. وأخيراً وصل الخادم إلى منزل الزوجة المتسلطة، وكان لابنتها قدم صغيرة. جربت الفتاة الحذاء، فلم تنجح في البداية، لكنها ضغطت كثيراً حتى استطاعت أن تلبس الحذاء. غضب الأمير كثيراً وعرف أنها ليست الفتاة التي أرادها، ولكنه كان عليه أن يفي بوعده بالزواج من التي يناسبها الحذاء.

وجاء يوم الزفاف وبينما كان الجميع ذاهبين إلى الكنيسة رفرف فوقهم طائر صغير وبدأ يغني:

«تتبختر في حذاء جميل، ضاغطة قدميها

بينما القدمان الجميلتان والأصابع الناعمة تجلس في المطبخ مهملة».

سأل الأمير: «ما هذا الذي تقوله؟».

أجابت الزوجة المتسلطة: «آه، هل تعير انتباهاً لما يقوله طائر أحمق؟» ولكن الأمير طلب من الطائر: «غنّ ذلك ثانية أيها الطائر الجميل». فغنى الطائر من جديد.

«تتبختر في حذاء جميل ضاغطة قدميها

بينما القدمان الجميلتان والأصابع الناعمة تجلس في المطبخ مهملة».

بعد أن سمع الأمير غناء الطائر، استدار بفرسه وعاد أدراجه إلى المطبخ في قصر أبيه. وهناك كانت تجلس راشين كوتي الجميلة، وعندما رآها الأمير عرفها على الفور. جربت الحذاء وكان مناسباً تماماً.

وهكذا يا أصدقائي تزوج الأمير من راشين كوتي وعاشا سعيدين، وبنيا بيتاً للعجل الأحمر لأنه ساعد راشين كثيراً.

حكايات الحيوانات

الثعلب المخدوع

ذات يوم نجح الثعلب في الإمساك بإوزة سمينة كانت تنام على ضفة البحيرة، وأراد أن يسخر منها وهي تقوقئ وتهسهس من الخوف، فأمسك بها من جناحها وسألها: «الآن، إذا استطعت أن تمسكي بي بأسنانك كما أفعل بك الآن، قولي لي ماذا كنت ستفعلين بي؟».

قالت الإوزة: «ولماذا تسأل، هذا سؤال بسيط، بالطبع كنت ضممت يديّ وأغمضت عينيّ ورفعت صلاة المائدة ثم التهمتك».

قال الثعلب: «هذا تماماً ما أنوي فعله»، فضمّ يديه معاً، وأغمض عينيه، وراح يتلو صلاة المائدة بكثير من الورع.

ولكن، وبينما هو منشغل بالصلاة، بسطت الإوزة جناحيها وطارت بعيداً، وعندما فتح عينيه كانت قد أصبحت فوق منتصف البحيرة، وتركت الثعلب يلعق شفتيه بدل العشاء.

قال الثعلب باستياء: «لقد تعلمت اليوم درساً، وسأضع قاعدة من هذا الدرس، لن أتلو صلاة الطعام ما حييت، إلا بعد أن أشعر بدفء اللحم في معدتي».

الثعلب والبراغيث المزعجة[1]

كثرت البراغيث في شعر الثعلب، فأزعجه الأمر كثيراً. وماذا فعل برأيكم للتخلص منها؟

بحث عن خصلة من الصوف وأخذها إلى النهر، وأمسك بها بفمه، ورويداً رويداً بدأ ينزل في الماء تاركاً رأسه خارجاً، وهكذا بدأت البراغيث تهرب من الماء فتصعد إلى رأسه، ثم تمر فوق أنفه إلى قطعة الصوف التي في فمه، وبعد أن أصبحت كل البراغيث على قطعة الصوف، غمس رأسه في الماء وحرر قطعة الصوف لتذهب مع التيار.

(1) تروى هذه القصة على أنها حقيقة (المؤلف).

الثعلب وحقيبة المزمار

في أحد الأيام كان الثعلب يتضور جوعاً، ولم يجد ما يأكله، لكنه وجد حقيبة جلدية، وكانت تصنع بشكل عام من جلد الحيوانات. وكان لا يزال في الجلد بقايا روح، وعندما عض الثعلب الحقيبة تـأوه الحيوان. دهش الثعلب ولكنه لم يخف فقال:

«ها قد حصلنا على اللحم والموسيقى»[1]

وذهب قوله مثلاً.

(1) هذا مثل شائع في المناطق الغربية من مرتفعات اسكتلندا (المؤلف).

مكر الثعلب

يقال إن الثعلب ذكي جداً. لا أعرف إذا كان هذا صحيحاً أم لا، ولكن شيخاً مسناً أخبرني بأنه قد رأى ثعلباً يذهب إلى البحيرة حيث يسبح البط البري، وقد أمسك حزمة من عيدان نبات الخلنج بفمه، وسبح مع التيار حتى صار بين البط، ثم أفلت العيدان وقتل بطة أو اثنتين.

الثعلب وطائر النمنمة

رأى الثعلب يوماً عائلة من طيور النمنمة تطير معاً، فسال لعابه. لكنه لم يكن ليقنع بواحد، بل اعتزم أن يأكل الجميع، الأب وصغاره الثمانية عشر. ظل الثعلب يراقب الأسرة بضعة أيام، ولكنه لم يستطع أن يعرف من هو الأب لأن الطيور كانت تشبه بعضها بعض كثيراً.

قال لنفسه: «لا فائدة من قتل أحد الأبناء، لأن ذلك سوف ينبه الأب فيهرب بالطيور السبعة عشر الباقية. ليتني أعرف أيهم هو الأب».

واستخدم الثعلب ذكاءه وبدأ يفكر بطريقة يستطيع من خلالها معرفة الأب. وفي أحد الأيام جلس يراقب الطيور وهي تنقد الحنطة، ولكنه لم يكن على يقين. فصاح بصوت عال: «الآن فهمت، أحسنت أيها العجوز! إنك تنقد الحبوب بشكل ممتاز».

أجاب الطير الذي توقع الثعلب بأنه كبير العائلة: «آه! يا ليتك ترى مهارة جدي في التصويب».

وهكذا قفز الثعلب الماكر على الطائر والتهمه في لمحة عين، وبعدها استطاع بسهولة أن يمسك الطيور الصغار الذين تفرقوا مذعورين.

الثعلب والديك

التقى الثعلب يوماً ديكاً وتحدثا معاً فقال الثعلب: «كم خدعة تتقن أيها الديك؟».

«حسناً، أنا أتقن ثلاث خدع. ماذا عنك، كم خدعة تتقن؟».

«أنا أتقن الكثير، أكثر من ثلاث وسبعين خدعة».

«وما هي الخدع التي تتقنها؟».

أجاب الثعلب: «حسناً، اعتاد جدي أن يغمض إحدى عينيه ويصيح بصوت عال جداً؟».

قال الديك: «وأنا أستطيع أن أفعل ذلك أيضاً».

«أرني ذلك».

فأغمض الديك إحدى عينيه وصاح بأعلى صوته، ولكنه كان قد أغمض العين التي من جهة الثعلب، فانقض عليه الثعلب

وحمله من عنقه وهرب به بعيداً. وبينما كان يركض والديك في فمه رأته زوجة الديك فصاحت به: «اتركه، إنه لي، قل أنت إنه ديكي أنا وسوف أتركه لك».

وهكذا أراد الثعلب أن يقول ما طلبته زوجة الديك، ففتح فمه وهرب الديك بسرعة وقفز على سطح البيت ثم أغمض عينه وصاح بملء صوته. وهذا ما روته الحكاية عن سبب صياح الديك.

كيف فقد الذئب ذيله[1]

خرج الثعلب والذئب يوماً بحثاً عن الطعام، وسرقا طبقاً من القشدة.

ولأن الذئب كان الحيوان الأكبر بين الاثنين وله ذيل طويل يشبه ذيل كلب الصيد وأنياب حادة، فقد كان الثعلب خائفاً منه، ولم يجرؤ أن يتفوه بكلمة وهو يرى الذئب يلتهم معظم القشدة، ولم يترك له سوى القليل في قعر الطبق. إلا أنه بينه وبين نفسه كان حانقاً وقرر أن يعاقبه.

في الليلة التالية عندما خرجا معاً قال الثعلب للذئب: «أشم رائحة جبن شهية» (وأشار إلى انعكاس القمر على الجليد) «انظر إني أراها أيضاً، ها هي هناك».

فقال الذئب: «وكيف ستصل إليها؟».

(1) تخطئ الحكاية في نسب الذيل القصير للذئب (المؤلف).

«حسناً، انتظرني هنا لأرى إذا كان المزارع نائماً، وإذا وضعت ذيلك فوقها فلن يراك أحد ولن يعلم أحد بوجودها. حاول أن تبقيها في مكانها وسوف أعود في الحال».

وبالفعل صدق الذئب كلام الثعلب ووضع ذيله على انعكاس القمر فوق الجليد، وبقي هكذا حتى تجمّد ذيله. أما الثعلب الذي كان يراقبه من بعيد فركض إلى المزارع وقال له: «الذئب، الذئب! الذئب هناك وسوف يأكل أطفالك».

فأسرع المزارع وزوجته يحملان الهراوات لكي يقتلا الذئب، وعندما رآهما هرب الذئب تاركاً ذيله وراءه. ولهذا السبب فإن ذيل الذئب قصير حتى يومنا هذا في حين ما زال ذيل الثعلب طويلاً.

النسر والنمنمة[1]

ذات يوم تبارى النسر والنمنمة، من منهما يستطيع الطيران أعلى من الآخر. وكان شرط الرهان أن من يفوز يحوز على لقب ملك الطيور. حلّق النسر بشكل دائري في الفضاء، بينما طار النمنمة بشكل مستقيم إلى الأعلى، وعندما تعب حط على ظهر النسر، وعندما تعب النسر وقف باحثاً عن النمنمة.

«أين أنت أيها النمنمة».

«أنا هنا فوقك».

وهكذا فاز النمنمة في المباراة.

(1) تصف القصة بدقة طريقة طيران النسر والنمنمة (المؤلف).

افتراض النمنمة

«هكذا تصبح أصغر حجماً»، قال طائر النمنمة وهو يغمر منقاره في مياه البحر.

الثعلبان

ذات يوم كان رجل يمشي على الطريق حاملاً على ظهره سلة مليئة بسمك الرنكة، فرآه ثعلبان. قال الثعلب الكبير للثعلب الصغير: «قف هنا واتبع ذلك الرجل، وأنا سوف أركض مسافة إلى الأمام وأتظاهر أني ميت».

وركض الثعلب وارتمى على الطريق متظاهراً بأنه ميت. وعندما وصل الرجل إليه فرح كثيراً لأنه وجد هذا الحيوان السمين، فحمله ووضعه في سلة السمك، وتابع طريقه. ولكن أخذ الثعلب يرمي السمكات من السلة فيلتقطها الثعلب الصغير الذي كان يتبع الرجل. وعندما رمى آخر سمكة قفز الثعلب الكبير من السلة، وهكذا سرقا سمكات الرجل وفرا هاربين .

مضى الثعلبان حتى وصلا إلى بيت حداد، فشاهدا حصاناً مربوطاً بالباب، وفي رجله حدوة من ذهب، حفر عليها اسم. فقال الثعلب الكبير: «سوف أذهب وأقرأ ما كتب على الحدوة».

واقـترب من الحصان، ولكن الحصان رفع رجله ورفس الثعلب فأرداه قتيلاً.

قال الثعلب الصغير: «يا أيها المسكين، أيها المسكين، أنا لست طالب علم ولا أرغب في أن أكون كذلك». وبالطبع كانت السمكات من نصيبه وحده.

النحلة والفأر

التقت نحلة فأراً فقالت له:

«تعال معي نبني بيتاً».

«لن أذهب معك.

«اطلبي من ذاك الذي أعطيته العسل هذا الصيف،

أن يبني لك بيتاً للشتاء،

أما أنا فلدي بيت صغير تحت الأرض

لا يصله البرد ولا الريح،

أما أنت فستكونين كائناً مشعثاً

تتقافزين على قمم الأشجار».

الفأران

كان هناك فأر يسكن الهضبة وفأر يسكن المزرعة .

قال فأر الهضبة: «إنه لمن الحسن أن تعيش في المزرعة حيث يمكنك الحصول على الكثير من الأشياء»

فأجابه فأر المزرعة: «لكن الهدوء حيث تعيش هو أروع الأشياء».

ألكسندر جونز

«جين، ابتعدي قليلاً باتجاه الشرق، فأنت تحتلين أكثر من نصيبك من المقعد»، طلب حاجب البلدية وهو يدخن غليونه أمام الموقد ذات ليلة شتوية باردة.

ولكن زوجته جين التي تعقدت خيوط قطعة القماش التي تحيكها كانت معتكرة المزاج فرفضت أن تتحرك من مكانها قيد أنملة، ولم تعر كلام زوجها أي اهتمام.

فقال زوجها ثانية: «جين، تنحي قليلاً باتجاه الشرق، ليس من اللباقة أن تجلسي بأنانية هكذا. هل تسمعينني؟»، وأزاحها قليلاً بالقوة.

صاحت به زوجته: «ماذا تعني بذلك؟ ماذا تعني بقولك الشرق؟ ليس هناك ما يدعى الشرق في الأساس، ثم...».

قاطعها زوجها قائلاً: «ليس هناك ما يدعى الشرق! «أتشككين بالشمس نفسها! ثم رفع صوته بلهجة خطابية وبدأ يشرح كيف أن الشمس تدور حول الأرض كل يوم، وهي تشرق

في كل لحظة في مكان ما من العالم، وهذا المكان يسمّى الشرق، وما من أحمق إلى هذه الدرجة لينكر هذه الحقيقة. أما السخف الحقيقي فالتحدّث عن وجود الغرب. فإذا كان كل مكان هو الشرق فلا وجود للغرب في أي مكان.

وبعد هذا الخطاب تمنى على زوجته ألا تجعل من نفسها أضحوكة وتتفوه بالهراء.

لكن زوجته وقفت وقالت له إنه لا ينظر إلى الأمر بطريقة صحيحة على الإطلاق. فعلى العكس تماماً فإن الشمس دائماً تغرب في مكان ما، وهذا المكان يسمى الغرب. وهذه حقيقة لا أحد من الحماقة حتى ينكرها. وبما أن الشمس دائما تغرب في الغرب في كل لحظة في مكان ما، فكل مكان هو الغرب. وإذا كان كل مكان هوالغرب فليس هناك من شرق في أي مكان. ولذلك فقد تمنت على على زوجها ألا يجعل من نفسه أضحوكة ويأتي على ذكر الشرق ثانية.

لكن الزوج هز رأسه تماماً كما يفعل كلب عضَّ خلف أذنه، وهم بالرد عليها عندما فاجأته وقفزت واقفة، وأسدلت تنورتها وبدأت تدور في الغرفة باتجاه واحد، لتمثل له كيف تتجه الشمس وهي تصيح: «الغرب، الغرب، الغرب!».

غضب الحاجب من عنادها، فوقف هو أيضاً ورفع سرواله وبدأ يدور حول الطاولة بعكس اتجاهها ويصرخ: «الشرق، الشرق، الشرق!» ليريها كيف يرى هو الأمر.

وانتهى بهما المطاف إلى أن شعرا بالدوار، فارتطم رأساهما ببعضهما بعض، الأمر الذي آلمهما كثيراً، ولكنه لم يؤد إلى تحسين مزاجهما، ولم يحل المشكلة. كونوا على ثقة بذلك.

لكن ألكسندر جونز جلس صامتاً في الزاوية ولم يتفوه بأي كلمة.

ورغم هذا الخلاف فقد اتفقا على شيء واحد، وهوأن هذا السؤال عميق ومهم، ولا يمكن تجاهله.

لذلك ذهبا معاً إلى بيت جارهما البقال، وأخبراه بالقضية والخلاف بينهما، فتحمس البقال وزوجته وعمته العانس، وأخت زوجته الصغيرة المتزوجة، وابنة أخت زوجته الصغيرة. وأيّد بعضهم وجهة نظر الزوج، في حين أيد بعضهم الآخر وجهة نظر زوجته. وهكذا بدأ الجميع يدورون حول الطاولة كل فريق باتجاه معاكس للآخر، ليشرح رؤيته للمسألة. وأيضاً انتهى بهم الأمر إلى الشعور بالدوار، فاصطدمت الرؤوس

بعضها بعض، الأمر الذي آلمهم، ولكنه لم يؤد إلى تحسين مزاجهم أو إلى جواب عن السؤال الذي يؤرقهم. يمنكم أن تثقوا بذلك.

أيضاً جلس صديقنا ألكسندر جونز في الزاوية صامتاً تماماً.

ولكن الجميع اتفقوا على شيء واحد، وهو أن السؤال عميق ومهم ولا يمكن تجاهله. لذلك ذهبوا جميعاً إلى صاحب الحانة الذي يملك بيتاً أكبر من بيت البقال على الجانب الآخر من الشارع، وأخبروه بالأمر وبتفاصيل اختلاف وجهات نظرهم حول المسألة. فتحمس صاحب الحانة وزوجته وعمته العانس والأخت الصغيرة لزوجة صاحب الحانة المتزوجة، وابنة أخت زوجة صاحب الحانة. وأراد الجميع أن يدلوا بدلوهم، فتبنى قسم منهم وجهة النظر الأولى، والقسم الآخر وجهة النظر الأخرى. وبدأ الجميع يدورون حول الطاولة باتجاهين مختلفين، كل يحاول إثبات صحة وجهة نظره. ولكن لم يكن الأمر أفضل من المحاولة السابقة، فانتهى دورانهم بالشعور بالدوار. واصطدمت الرؤوس مرة أخرى، الأمر الذي آلمهم ولكنه لم يؤد إلى تحسين المزاج أو إلى حل المسألة. يمكنكم أن تثقوا بذلك.

ومجدداً جلس ألكسندر جونز في الزاوية بصمت تام.

وأيضاً اتفق الجميع على أن السؤال عميق ومهم ولا يمكن تجاهله، فذهبوا إلى القاضي الذي يملك البيت الأكبر في البلدة، ويقع بيته في منتصف الطريق إلى السوق. وأخبروه كل شيء عن الأمر وعن وجهات نظرهم المختلفة، وعن كل التفاصيل إلى الآن. فتحمس القاضي وزوجته وعمته العانس، والأخت الصغيرة لزوجة القاضي المتزوجة، وابنة أخت زوجة القاضي. وشارك الجميع في محاولة الإجابة عن السؤال. ولكنهم أيضاً انقسموا بين وجهتي النظر، وبدأ الجميع يدورون حول الطاولة، قسم بالاتجاه الأول والقسم الآخر بالعكس، محاولين إثبات وجهات نظرهم. ولم تكن النتيجة مختلفة عما سبق، فقد شعر الجميع بالدوار، واصطدمت رؤوسهم وآلمهم الأمر، ولكنه لم يؤد إلى تعديل مزاجهم أو إلى حل المسألة. يمكنكم أن تثقوا بذلك.

وكعادته جلس ألكسندر جونز في الزاوية دون أن ينبس بكلمة.

والأمر الوحيد الذي اتفق عليه الجميع هو أن السؤال عميق ومهم ولا يمكن تجاهله، ولذلك دعا القاضي إلى اجتماع عام للبلدة في الساحة العامة.

وعندما حضر الجمهور إلى الساحة، عرض عليهم القاضي الأمر وأخبرهم بكل تفاصيل السؤال وبكل ما حدث حتى اللحظة. وتحمس الجمهور وزوجة الجمهور، وخالة الجمهور وأخت زوجة الجمهور، وابنة أخت زوجة الجمهور ليدلي كل بدلوه. وكما سبق، أيّد بعضهم وجهة نظر، وبعضهم الآخر وجهة النظر الأخرى.

وأراد كل منهم أن يشرح وجهة نظره ممثلاً كيف يعتقد أن الأمر يحدث، وهنا واجهوا صعوبة جديدة! لسوء الحظ لم يكن في ساحة البلدة طاولة ليدوروا حولها، فكيف سيشرحون الأمر؟ فقرروا أنه يجب ألا تعيقهم مسألة تافهة كهذه عن السؤال الأساسي، فاقترحوا بأن يقف القاضي في الوسط ويدور الجميع حوله كلٌ بالاتجاه الذي يفضله.

لم يكن القاضي سعيداً بقرارهم هذا، وعبر عن رفضه للاقتراح وقال لهم إنه سوف يشعر بالدوار عندما سيدورون حوله باتجاهين متعاكسين، وهذا حتماً سوف يسبب الغثيان، ولذلك اقترح أن يقف مكانه ألكسندر جونز. أجل، لماذا لا يدورون حوله ويستفيدون منه بشيء، فهو غبي ولا يقول شيئاً؟ وبالإضافة لهذا فهو أيضاً يريد أن يدور كالبقية لإثبات وجهة نظره، فلماذا يستثنونه من الدوران هو دون غيره؟

قوبل اقتراحه بالرفض القاطع، وصاح الجميع: «ألكسندر جونز أصغر من أن ندور حوله، ومن المحتم أنه سوف يداس تحت أقدامنا». لم يقبل اقتراحه ثم أصر الجميع على أنه يجب أن يفعل ما يطلبونه منه، خاصة أنهم قدموا له في اليوم السابق حزاماً من الذهب الزائف ليلبسه على وسطه. لا مفر إذن، لقد جاء دوره ليقدم لهم شيئاً في المقابل وإلا فسوف يستعيدون الحزام.

إذن، رضخ المسكين لمشيئة الجمع، ولكنه أصر على أن يعصبوا عينيه، ويقدموا له كرسياً ليجلس حتى لا يشعر بالدور ويسقط بلا شك.

وهذا ما حصل، فقد عصبوا عينيه بقطعة من قماش غسل الأطباق حصلوا عليها من مكان ما، ببساطة لأن رأسه كان أضخم من أن يعصب بمنديل. ثم أجلسوه على كرسي، وبدأ الجميع دورانهم المحموم حوله، قسم بهذا الاتجاه والقسم الآخر بالاتجاه المعاكس. ولم يجد الدوران نفعاً، بل لقد شعروا بالدوار، واصطدمت الرؤوس ببعضها بعض. الأمر الذي آلمهم ولم يؤد إلى تحسين مزاجهم، ولم يحل المسألة أيضاً. والأسوأ من كل ذلك، أن الأرملة السمينة إليزا ميديارمد صاحبة دكان الحلوى سقطت فوق القاضي، وأطاحته وكرسيه أرضاً.

أما ألكسندر جونز فلم يكن منه إلا أن جلس كعادته في الزاوية صامتاً لا ينبس ببنت شفة.

وقف القاضي وأزال العصبة عن عينيه، وقال بكثير من الانفعال إنه عليهم أن يفعلوا شيئاً لحل المسألة فوراً، وإنه لن يتحمل مزيداً من الجلوس هناك. كما هدد الجميع بأنهم إن لم يوافقوا على الأمر، فسوف يفرض عليهم ضريبة على الأزرار. وكان هذا قراراً حكيماً من جهته، فثوبه كان مثبتاً بإبزيم من العنق، وبحزام معدني من الوسط، فالضريبة لن تطاوله أبداً.

وهنا نهض حاجب البلدية وقال إنه يجب حل هذه المسألة بالفعل، ولكن في هذه الحالة اقترح عليهم طريقة أخرى للإجابة عن ذلك اللغز المربك. اقترح أنه سوف يذهب وينادي بيتر المتسكع، لأنه يبقى في الخارج طوال الوقت، في الصباح الباكر وفي المساء، وبالطبع فهو أكثر من يعرف عن حركة الشمس. ولكن إذا ما وافقوا على دعوته فيجب أن تأتي معه أخته العوراء جسيكا. ويجب أن تعرفوا أن جسيكا تقوم بغسل ثياب القاضي، لذلك فهي شخص مهم في البلدة، ومن المؤكد أن بيتر سوف يرفض المجيء إن لم تأت أخته معه.

تعرفون ما لذي أثار حنقي في هذا الاقتراح؟ سأقول لكم. لقد كانت الساحة مليئة لدرجة أنه ليس هناك أي إنش خال، ولكي ينضم بيتر وأخته إلى الجمع كان لابد أن يخلي اثنان من الجمع مكانيهما.

وبالطبع فقد كنت أنا الشخص الأول الذي وقع عليه الاختيار لاستبعاده، لأني كنت غريباً عن البلدة، وألكسندر جونز كان الثاني لأنه كان غبياً ولم يقل شيئاً.

وهكذا كما ترون، لم يتسن لي أن أعرف القرار الذي وصلوا إليه، وكيف توصلوا إلى حلّ للمسألة. لكني واثق من أنهم تصلوا إلى اتفاق ما، لأنه في صباح اليوم التالي رأيت الناس يرتدون ثيابهم كالمعتاد، ولم ترتفع أسعار الأزرار في الحوانيت.

وبالرغم من أني شعرت بخيبة أمل كبيرة من أجلي، ولكني أشعر أيضاً بخيبة أمل أكبر من أجلكم يا أصدقائي، لأنكم استمعتم برحابة صدر وصبر لهذه القصة الطويلة.

ولكن لماذا كان ألكسندر جونز بهذا الغباء، كي يجلس في الزاوية صامتاً دون أن يقول شيئاً؟

أوه! صه، صه الآن! ما هذا السؤال السخيف؟ تتساءلون كيف؟ وماذا بحق السماء كان سيفعل غير ذلك؟ فألكسندر جونز ليس إلا هرّ حاجب البلدية.

حكايات الجن

جنّ اسكتلندا

يوصف الجنّ في اسكتلندا بأنهم جنس وضيع ذو طبيعة مريبة ملتبسة وأنهم مزاجيون ميالون إلى الأذية. وهم يسكنون في جوف الهضاب الخضر، وبشكل رئيسي في الهضاب مخروطية الشكل التي تسمى في اللغة الغيلية «سيّان» وهناك يمارسون رقصاتهم في ضوء القمر، تاركين على الأرض آثاراً من الدوائر التي تكون أحياناً صفراء باهتة، وأحياناً أخرى خضراء غامقة، ويعتقد أنه من الخطر أن ينام المرء ضمن هذه الدوائر أو أن يتواجد فيها بعد الغروب.

وينسب خلوّ هذه النواحي من الأعشاب التي غالباً ما تحرقها الصواعق، إلى قوة الجنّ. كما أنه إذا ما أصيب أحد الماشية بالشلل، أو حل أي نوع من المرض المفاجئ، فإن هذا يعزى إلى أن الجن قد ضربه. والعلاج الذي ينصح به في هذه الحالات هو فرك الجزء المصاب بقلنسوة زرقاء، والتي غالباً ما تعيد النشاط للدورة الدموية، وهذا أمر يصدقه الناس على نطاق واسع.

وتكثر في أراضي اسكتلندا أحجار الصوان مثلثة الشكل والتي استخدمها السكان قديماً لشحذ رماحهم، ويعتقد أنها سلاح الجن، ويطلق عليها اسم رؤوس رماح الجن. أما الفؤوس النحاسية التي استخدمها القدماء المعروفون باسم «السلت» فيقال إن الجن هم صناعها أيضاً.

ولكن وكما هم أقزام القوطيين، فإن مهاراتهم لا تقتصر على اختلاق القتال، لأنهم سمعوا يطرقون بشكل متواصل في الشلالات والجروف، والكهوف والمناطق الصخرية، تماماً كأقزام المناجم الذين ذكرهم جورج أغريكولا[1]، فهم يشغلون أنفسهم بتقليد الأفعال والوظائف المتعددة للرجال. فغدير بيومونت مثلاً الذي يعبر في مجراه العديد من الجروف والكهوف الصخرية، مشهور بأنه مسكون بالجن. وقد أطلق العامة على أحجاره المدورة كثيرة الثقوب بفعل العوامل الطبيعية، اسم أطباق الجن وأكوابهم.

في كثير من الأحيان يعتبر من مساوئ الحظ المرور بتلك الأماكن دون تأدية طقوس خاصة لتجنب إزعاج الأقزام أو الجن.

---

(1) غيورج أغريكولا (1495–1555): عالم ألماني يعرف بأنه مؤسس علم المعادن (م).

وهناك في بيبلشاير هناك على قمة جبل مينتشمير ينبوع يدعى بئر الجبن، ويعود سبب هذه التسمية إلى أنه قديماً كان المارّون بالقرب من ذاك الينبوع معتادين على رمي قطعة من الجبن كهدية للجنّ، لاعتقادهم أن البئر موقوف لهم.

اللون المعتاد للجن هوالأخضر، بالرغم من أنه في بعض الأحيان يتم رؤيتهم في المروج باللون الأخضر المائل للبني، أو في الغابات ملونين بألوان الصخور، أو بألوان الطحالب. وهم يسيرون في مواكب غير مرئية على الأغلب، ولكن يُكتشف حضورهم من خلال الصرير الحاد الذي يصدر عنهم حين يلجمون خيولهم فجأة. وفي هذه المناسبات فهم يخطفون أحياناً خيولاً ضخمة، ويجدها أصحابها في الصباح منهوكة القوى، لا تزال تلهث من التعب وهي مربوطة في زرائبها وأعناقها وذيولها شعثاء الشعر. وأفترض أن ساسة الخيل غالباً ما يجدون في هذا عذراً مقنعاً لتقصيرهم عن رعاية الخيل، كما أن الاعتقاد السائد بأن الجن يشربون أفضل النبيذ في أقبية الخمر في بيوت الأغنياء، هو مبرر مقنع للتغطية على سرقات السقاة.

الجنية وزوجة الطحان[1]

ذات يوم كانت أم تهدهد صغيرها لينام عندما نظرت فجأة لتجد سيدة أنيقة لطيفة المظهر تقف في وسط الغرفة. لم تكن قد رأت تلك السيدة من قبل في البلدة، ولم تسمع صوت أحد يدخل من الباب. لذلك يمكنكم أن تحكموا كم كانت دهشتها عظيمة، وكيف اختلطت المفاجأة عندها بالفضول. ولكنها وقفت ترحب بزائرتها الغريبة. وقدّمت لها كرسياً، لكنها وبلباقة شديدة رفضت الجلوس. كانت ترتدي ثوباً أخضر غامقاً، مزخرفاً ومرصعاً بالخيوط الذهبية، وعلى رأسها إكليل من اللؤلؤ.

ازدادت مفاجأة الأم حين طلبت منها السيدة الغريبة بصوت موسيقي رخيم، أن تتفضل عليها بزبدية من دقيق الشوفان. ولأن زوج المرأة كان مزارعاً وطحاناً في وقت واحد، ولديهم الكثير من الدقيق، فمثل هذا الطلب سهل للغاية، وسرعان ما ملأت

(1) كامبل، حكايات المرتفعات الغربية.

الأم زبدية من دقيق الشوفان وناولتها للسيدة الغريبة. فأخذتها السيدة ووعدت بأنها سوف تعيدها، وحدّدت يوماً لذلك. وبعد أن ذهبت السيدة أخبرت إحدى البنات الصغيرات أمها بأنها مدت يدها لتتلمس الزينة المتلألئة على ثوب المرأة، ولكنها لم تلمس شيئاً.

خشيت الأم من أن تكون الطفلة قد فقدت القدرة على استخدام يديها، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. كم سيكون نكراناً للمعروف لو أن جلالة الجنية قد أطاحت بالطفلة الضعيفة لمجرد أنها حاولت لمس ثوبها، هذا لو كانت تملك القوة لفعل ذلك. ولكن فلنعد لقصتنا. في اليوم الذي حددته الجنية تماماً، عادت لتعيد دقيق الشوفان، ولكنها لم تكن السيدة نفسها بل كانت سيدة قصيرة القامة سليطة اللسان الألفاظ، وصوتها يشبه العواء، وتلبس الأخضر أيضاً.

وبعد أن سلمت الدقيق صاحت: «دقيق ممتاز، إنه من أفضل إنتاج الذرة اللعينة». لقد كان ممتازاً حقاً، ولكن الغريب في الأمر أن الأسرة بكاملها نصحت بتناول بعضاً من ذاك الدقيق، باستثناء خادم واحد رفض أن يتناول دقيق الجنية وقد مات بعد فترة قصيرة من تلك الحادثة، فكان الطحان وزوجته على يقين بأن

سبب موته هو رفضه لتناول دقيق الجنية. كما اعتقدوا أن زائرتهم الأولى كانت ملكة الجنيات، ولكنها قدمت إليهم بنفسها لأنها كانت قد طردت حاشيتها ولم يبق لديها خادمة تطيع أوامرها.

وبعد بضعة ليال من تلك الزيارة الغريبة، وبينما كان الطحان على وشك أن يأوي للنوم، سمع طرقاً خفيفاً على الباب. فتح الباب حاملاً شمعة، فرأى امرأة ترتدي الأخضر وقد طلبت منه بصوت يشبه الزعيق، ولكن بطريقة جد مهذبة، أن يفتح الماء على الطاحونة ويديرها، لأنها تريد أن تطحن بعض الذرة.

لم يجرؤ الطحان على الرفض ففعل ما أمر به. وقبل أن يعود لسريره قالت له المرأة إنه سوف يجد كل شيء على حاله كما تركه. وبالفعل وكما وعدت الجنية في الصباح وجد كل شيء كما تركه. وكان هذا دليلاً على إخلاص الجنيات وصدقهن.

السير[1] غودفري ماكولوتش

في بعض الأحيان يستوطن الجن في اسكتلندا في مساكن تحت أرضية بجوار مساكن البشر، أو حسب التعبير السائد، «تحت عتبة الباب». وفي كل الحالات فالجن يقيمون علاقات مع البشر من خلال تبادل الأشياء أو المصالح المناسبة. وعلى هذا الأساس يدعوهم الناس بـ «الجيران الطيبين» لأنهم يزودون أصدقاءهم بشكل خاص بكل ما يحتاجون إليه، ويساعدونهم في شتى شؤونهم بينما يبقى معروفهم مطموراً أو مخفياً. وتقدم قصة سير غودفري ماكولوتش مثالاً حياً على هذا النوع من الجنّ.

بينما كان أحد أشراف بلدة غالوي يتنزه على ظهر حصانه بجوار منزله، فوجئ بقزم عجوز مجللاً بالأخضر من رأسه حتى أخمص قدميه ويمتطي جواداً صغيراً، يلقي عليه التحية. بعد أن تبادلا التحية شرح له القزم أنه يسكن تحت منزله، وأن لديه سبب

(1) لقب تشريفي إنجليزي (م).

مهم ليتقدم بشكوى لتغيير اتجاه الصرف الصحي أو المجرور العام الذي يصب مباشرة في غرفة نومه. أجفل السيد غودفري ماكولوتش من هذه الشكوى الخارجة عن المألوف، ولكنه استند إلى حدسه بمعرفة ماهية هذا الرجل، فأكد له بكثير من اللباقة بأنه حتماً سيصار إلى تغيير اتجاه مياه الصرف الصحي، وبالفعل فقد سعى السيد غودفري لتنفيذ وعده.

بعد عدة سنوات من هذه الحادثة مني السيد غودفري بسوء حظ، إذ قتل أحد الجيران على إثر شجار وقع بينهما، وحكم عليه بالإعدام، وكان مسجوناً وموثقاً، وقد نصبت مشنقته في كاسيل هيل في أدنبره. وفي اليوم المحدد لإعدامه لم يكد يصل السيد غودفري إلى مكان المشنقة حتى ظهر القزم العجوز على جواده الصغير الأبيض، وشقّ الحشد بسرعة الضوء ليصل إلى غوفردي. واستجاب غودفري فوراً لطلبه وصعد خلف «الجار الطيب» الذي حث جواده وهبط بسرعة البرق الضفة المنحدرة، ومنذ ذلك اليوم لم ير أحد أي منهما ثانيةً.

سيد الخلجان

في قديم الزمان كان مالك كولزين في آيرشاير معروف في البلدة بلقب لورد أوف كو (سيد الخلجان) وقد أخذ لقبه من كلمة «كوز» التي تعني بالإنجليزية الخلجان التي تتواجد في الصخور تحت القلعة.

وذات صباح وقف بباب القلعة صبي صغير يحمل إبريقاً خشبياً صغيراً، وخاطب اللورد راجياً إياه أن يعطيه بعضاً من شراب المِزْر[1] من أجل أمه المريضة. أمر اللورد الساقي بملء إبريق الصبي، فراح الساقي ينفذ الأمر. كان لدى الساقي برميل من المزر مليء حتى النصف، ولكنه أفرغه كله ولم يمتلئ إبريق الصبي الصغير.

لم يكن الساقي يريد فتح برميل آخر لكن الصبي أصرّ عليه لكي ينفذ أمر اللورد حرفياً. أخبر الساقي اللورد بالأمر وأكد له

(1) المِزْر: شراب من نوع الجعة مصنوع من الزنجبيل (م).

السعة العجيبة لذلك الإبريق الصغير، ولكن اللورد أمره أن يملأه حتى لو اضطر إلى تفريغ كامل مخزون القعلة من الجعة. ونزولاً عند أمر اللورد فتح الساقي برميلاً آخر، ولكنه لم يكد يصب قطرة واحدة منه حتى امتلأ الإبريق، فحمله القزم وغادر وعلى وجهه تعابير الامتنان.

مرت السنوات، ونشبت الحرب في فلاندرز وأخذ اللورد أسيراً، ولسبب أو لآخر (ربما اعُتبر جاسوساً) حُكم عليه بالإعدام. وفي ليلة تنفيذ الحكم، كان اللورد محبوساً في زنزانة محكمة الأقفال متينة القضبان، لكن وبشكل مدهش فتحت الأبواب فجأة، وظهر القزم الصغير ثانية وطلب من اللورد:

«لورد أوف كو،

«انهض وانطلق»

بالطبع، لم يكن مثل ذلك الطلب بحاجة لتكرار، فهو الطلب المرتجى.

وحالما خرج اللورد من السجن طلب منه القزم أن يركب على كتفيه، وبلمح البصر أنزله عند بوابة قلعته في المكان نفسه الذي التقيا به من قبل ثم قال له:

«الجميل يتطلب رد الجميل،

وأنا أكافئك بهذا لأنك كنت طيباً جداً مع أمي العجوز».

ثم تركه القزم واختفى.

هابيتروت

في الأيام الخوالي عندما كان الغزل وظيفة المرأة الدائمة، كان لدولاب الغزل أو المغزل جنية، وكانت حاجبتها تدعى هابيتروت، وفيما يلي يروي لنا السيد ويلكي[1] أسطورة عن هابيتروت.

كان للأم الكبرى في سيلكيرك شاير فتاة شقراء جميلة. وكانت الفتاة تفضل اللعب على العمل، وتفضل أن تتجول في المروج والأزقة بدلاً من أن تدير دولاب الغزل أو تغزل بالمغزل، وهو ما أثار حنق والدتها لأنه لم يكن لدى الفتاة في تلك الأيام أي فرصة للحصول على زوج جيد إن لم تكن تجيد الغزل. حاولت الأم بشتى الأساليب أن تشجّع ابنتها على الغزل، مستخدمةً اللين حيناً والتعنيف حيناً آخر، حتى إنها كانت تضربها أحياناً ولكن عبثاً. وظلت الفتاة كما تحب الأم أن تدعوها: «فرساً خاملة».

(1) ويلكي كولينز (1824-1889): كاتب وشاعر إنجليزي (م).

أخيراً جاءتها الأم ذات صباح ربيعي بسبع شلل من نسالة القطن، وطلبت منها أن تعيدها خيوطاً مغزولة بعد ثلاثة أيام، وحذّرتها من أنها لن تقبل أي عذر. شعرت الفتاة أن أمها جادة بطلبها، فتناولت مغزلها وبذلت قصارى جهدها ولكن يديها الصغيرتين لم تكونا معتادتين على الغزل، وفي مساء اليوم التالي لم تكن قد أنجزت سوى جزء يسير من مهمتها، فجلست تبكي حتى نامت. وفي صباح اليوم التالي استولى عليها اليأس فرمت المغزل جانباً وخرجت إلى الحقول والدموع تملأ عينيها.

مشت الفتاة حتى وصلت إلى هضبة مغطاة بالزهور، وعند سفحها يجري جدول صغير مغطى بنبات صريمة الجدي والورود البرية، فجلست هناك وغطت وجهها بكلتا يديها. وعندما نظرت أمامها، فوجئت بامرأة تجلس في الشمس على حافة الجدول، تسرح الخيوط التي غزلتها.

لم تتعرّف المـرأة ولم يكن هناك ما يميزها باستثناء شفتيها الكبيرتين الغليظتين، وكانت تجلس على حجر مثقوب. وقفت الفتاة واقتربت من المرأة وحيتها بود، ولم تستطع أن تقمع فضولها فسألتها عن سبب ضخامة شفتيها.

أجابت المرأة: «هذا من أثر خيوط الغزل يا بنيتي». وقد أعجبت المرأة بلباقة الفتاة ولم تتبرم قط من سؤالها. لابد من الإشارة إلى أن الغزالات كن على الدوام يرطبن أصابعهن بشفاههن كلما سحبن الخيط من الدولاب أو من المغزل.

قالت الفتاة: «آها، من المفترض أن أغزل أنا أيضاً ولكن يبدو أنه من المستحيل أن أنجز مهمتي». وهنا اقترحت عليها العجوز أن تغزل بدلاً منها. لم تتمالك الفتاة نفسها من الفرح، فأسرعت وأحضرت لها القطن، ووضعته بين يديها وسألتها عن اسمها وعن المكان الذي ستجد فيه الخيوط في المساء، ولكن العجوز لم تجب بل تركتها ومضت واختفت بين الأشجار. غمر الفتاة شعور بالذهول والإرباك فراحت تبحث عنها ثم جلست لترتاح، ولكنها غطت في النوم على سفح هضبة صغيرة.

دهشت الفتاة عندما استيقظت لتجد المساء قد حل، والسماء في الغرب تحولت إلى شفق رمادي. ونجمة المساء كوزلين تتلألأ بنورها الفضي وتكاد تختفي أمام إشراقة القمر التي تتزايد تدريجياً. وبينما هي تراقب تغيرات السماء، أجفلها صوت غريب بدا صادراً من تحت الحجر المثقوب إلى جانبها تماماً. وضعت أذنها على الحجر وأصاخت السمع، وبشكل قاطع سمعت هذه الكلمات:

«سيدتي الصغيرة هناك عند ذاك المنحدر، السيدة التي تدعى هابيتروت».

نظرت داخل الحفرة فرأت صديقتها العجوز، تمشي جيئة وذهاباً في تجويف عميق بين مجموعة من الغزّالات، وجميعهن جالسات على أحجار بيضاء (نوع من الحصى البيضاء التي تتواجد في الأنهار) وكل مشغولة بمغزلها. صحبة دميمة كن بمهنتهن التي تركت بصمتها على شفاههن تماماً كما كانت هابيتروت العجوز. وهذه الميزة تمتد لتشمل أختاً أخرى جلست في الزاوية المقابلة تلف الخيوط في بكرات، لكنها كانت أيضاً تتميز بعينيها الرماديتين اللتين بدتا وكأنهما تحدقان من رأسها ذي الأنف الطويل المعقوف.

وبينما كانت السيدة تلف الخيوط كانت تعد البكرات: «كريبي، اثنتان، ثلاث..». وهكذا دواليك. ظلت تعد حتى اكتملت البكرة وقطعتها—الكريبي هي الخيوط التي تم لفها على البكرة وهو مقياس يقدر بزهاء ثلاثة أقدام، وطول البكرة زهاء ثمانين إنشاً.

وبينما الفتاة تراقب المشهد، سمعت صوت هابيتروت تخاطب السيدة التي تجلس بمفردها وتناديها باسم سكانتلي ماب، وتطلب إليها أن تحزم الخيوط لأنه جاء الوقت الذي يفترض

بالفتاة تسليم الخيوط لأمها. سعدت مستمعتنا بما سمعته، وهمت بالعودة إلى البيت. وقبل أن تطول حيرتها أدركتها هابيتروت ووضعت الخيوط بين يديها.

صاحت الفتاة بسعادة: «حسناً! شكراً جزيلاً ولكن ماذا يمكنني أن أقدم لك بالمقابل؟».

فأجابت السيدة العجوز: «لاشيء، لا شيء، ولكن لا تخبري أمك بهذا الأمر».

لم تكن لتصدق هذا الحظ العظيم الذي حظيت به، وبكثير من الفرح حملت سيدتنا الصغيرة الخيوط وانطلقت إلى البيت. من الواضح أن الأم كانت متعبة بعد الجهد التي بذلته في إعداد السجق، حيث كانت قطع السجق لا تزال معلقة على قدر المدخنة لتجف، بينما غطّت الأم في النوم.

عند رؤيتها قطع السجق شعرت فتاتنا بالجوع بعد يومها الطويل على الهضبة، فأخذت تقلي السجق قطعة بعد أخرى حتى أتت عليه كله، وبعدها أوت إلى النوم.

كانت الأم أول من استيقظ في الصباح، وعندما ذهبت إلى المطبخ وجدت أن قطع السجق التي أعدتها قد اختفت جميعها،

ولكنها وجدت أيضاً سبع لفات من الخيوط المغزولة ملقاة على الطاولة، وكانت مغزولة بعناية، فهي ناعمة ونظيفة، اختلطت مشاعر الأم بين الغيظ والفرح فخرجت من البيت تصيح:

«ابنتي غزلت سبعاً،

ابنتي أكلت سبعاً،

وكل ذلك قبل طلوع النهار!».

وشاءت الصدف أن يكون أحد النبلاء ماراً في الجوار، فسمع هتاف المرأة دون أن يفهم تماماً ماذا تعني، فاقترب منها وسألها ما أمرها، وما الذي يدفعها لتهتف هكذا. فرددت المرأة هتافها ثانية

«ابنتي غزلت سبعاً،

ابنتي أكلت سبعاً،

وكل ذلك قبل طلوع النهار!

نعم قبل طلوع النهار، إذا كنت لا تصدقني فلِمَ لا تأتي معي إلى داخل البيت وترى بنفسك». أثار كلامها فضول اللورد، فترجل عن فرسه ودخل إلى الكوخ ليرى الخيوط متقنة الغزل، فأعجب بها أيما إعجاب وأصر على رؤية الغزّالة.

جاءت الأم بالفتاة التي تورّدت خجلاً، ورغم ثيابها الرثة إلا أنها سرعان ما فازت بقلب السيد، الذي أعلن على الفور بأنه يشعر بالوحدة من دون زوجة، وأنه يبحث منذ فترة عن فتاة تجيد الغزل، وهكذا تقدم لخطبة الفتاة وسرعان ما تزوجها.

كانت العروس تخفي خشيتها من أنها ستفشل حكماً في إثبات مهارتها في الغزل وتخيب أمل حبيبها، ولكن العجوز هابيتروت حضرت لمساعدتها مرة أخرى. لقد كانت سيدة كريمة ومتسامحة، وكما كانت تظهر لتساعد كل العذراوات المتكاسلات فإنها حتماً لن تخذل صغيرتها المحببة. بعد العرس مباشرة حضرت هابيتروت وقالت للعروس الشابة: «أحضري عريسك الوسيم إلى صومعتي، وهناك سوف يرى ما يفعله الغزل بالسيدات، ولن يدعك يسمح لك بلمس دولاب الغزل أبداً».

وبالفعل ففي اليوم التالي استدرجت الفتاة زوجها إلى الهضبة المزهرة، ورجته أن ينظر من خلال الحجر المثقوب. وما كانت أشد دهشته حين رأى هابيتروت ترقص وتتقافز على صخرتها وتغني قصيدة لأخواتها اللواتي يمضين الوقت مع المغازل:

«نحن اللواتي نعيش في الوكر الموحش،

نحن أقل وأبغض مما تشتهي العين أن ترى،

لا تصلنا أشعة الشمس

التي تخصب نباتات الأرض الجميلة،

وتمر الأماسي محملة بالوحدة والعزلة،

على هذه الأحجار الموحشة،

لا فرح يزين المساء الرمادي،

عندما ترتحل كوزلين،

بينما أولئك الذين يتنفسون نسائم المساء،

ينعمون بالبهجة والضوء والجمال،

وبرفق ينظرون داخل الحجر المثقوب،

وحدي أراهم دون الجميع».

عندما انتهت الأغنية سألت سكانتلي ماب هابيتروت، ما الذي قصدته في البيت الأخير من القصيدة عندما قالت: «وحدي أراهم دون الجميع».

فأجابتها هابيتروت: «لقد دعوت أحداً ليأتي إلى هنا في هذه الساعة وكان يستمع لأغنيتي من خلال الحجر المثقوب». وقبل أن تكمل جملتها نهضت وفتحت باباً آخر كان مطموراً بجذور شجرة معمرة ودعت العروسين ليدخلا ويتعرفا إلى أسرتها.

ذهل اللورد من تلك الصحبة المقيتة – التي كان من المحتمل أن تكون صحبته الدائمة– وسأل واحدة بعد الأخرى عن سبب التشوه الغريب في شفاههن. ومع اختلاف نغمة أصواتهن والطريقة التي نطقت كل منهن جوابها، إلا أنه كان جواباً واحداً لسؤاله، بأن ذاك التشوه هو من فعل الغزل.

بينما أشارت هابيتروت بشكل مبطن، إلى أن زوجته قد تتعرض للمصير نفسه، وقد تتشوه شفتاها الجميلتان ووجهها البهي إذا اضطرت إلى ممارسة الغزل. ذعر اللورد مما رآه وسمعه، وقبل أن يغادر الكهف أقسم بأن زوجته لن تلمس دولاب الغزل أو المغزل أبداً. وهذا ما حدث، لقد وفى اللورد بوعده واعتادت فتاتنا فيما بعد أن تتجول في المروج إلى جانبه، أو تمتطي صهوة الحصان خلفه ويتنزهان في الهضاب، بينما كانت كل محاصيل الكتان ترسل إلى هابيتروت العجوز لتغزلها وتحولها إلى خيوط للنسيج.

تولمان

كانت هناك في منطقة «بايل ثانغاسديل» امرأة تبحث عن عجليها المفقودين، وتأخر الوقت فداهمها الظلام، وكانت ليلة قاسية أرعدت فيها السماء وأمطرت. ارتبكت المرأة وبدأت تبحث عن مأوى، فاقتادت عجليها إلى هضبة، وأخذت تجوبها بحثاً عن ملاذ، وفجأة سمعت من جوفها صوت طرق، وإذا بامرأة تطل برأسها وكامل جذعها من الهضبة وتسألها: «ما خطبك أيتها المرأة تقضين مضجعي في المكان الذي أسكن فيه».

فأجابت المرأة: «لست سوى امرأة مسكينة تهتم بهذين العجلين، أين يمكنني أن أذهب بهما؟».

«اذهبي بهما إلى ذاك المنحدر هناك وسوف تجدين بعض العشب، إذا أكل العجلان من ذاك العشب فسوف يكون لديك بقرة حلوب طوال حياتك، لأنك استشرتني وأخذت بنصيحتي».

وكما وعدتها الجنية لم يمر يوم في حياة تلك المرأة دون أن يكون لديها بقرة حلوب وقد عاشت حتى بلغت الخامسة والتسعين.

جزيرة بابيدا

جاءت امرأة مسالمة (جنية) إلى منزل رجل في جزيرة بابيدا، وكانت حاملاً وتشعر بالجوع. قدم الرجل لها طعاماً أعجبها، فقضت ليلتها في بيته. وعندما أرادت الرحيل قالت للرجل: «سوف أتمنى بأن أحداً من سكان هذه الجزيرة لن يموت في أثناء الولادة بعد الآن».

ومنذ ذالك الحين لم تمت أي امرأة من سكان الجزيرة، ولا من السكان الذين جاؤوا بعدهم، في أثناء الولادة.

سانتاريا[1]

كانت تعيش في جزيرة سانتاريا امرأة ترعى قطيعاً، وكان لديها قدر طبيخ، وكل يوم كانت تأتي امرأة مسالمة (جنية) وتستعير القدر. كانت الجنية تأتي صامتة لا تتفوه بكلمة، بل تأخذ القدر وتمضي. وعندما تمسك بالقدر كانت صاحبة البيت تقول:

«بمقدور الحداد جعل

الحديد حامياً بالفحم،

وحق القدر العظم،

وأن تعود ممتلئة به»

وتعيد الجنية كل مساء القدر وهي مليئة باللحم والعظم. وذات يوم اضطرت الزوجة إلى الذهاب برحلة بالعبارة إلى بيل كاسل، فطلبت من زوجها: «إذا كنت ستقول للجنية ما أقوله لها فسوف أذهب إلى بيل كاسل».

(1) كامبل، من مجموعة الحكايات الشائعة في المرتفعات الغربية.

فأجاب زوجها: «حتماً سوف أقول لها ذلك».

كان الرجل يجدل حبلاً من نبات الخلنج لحاجة ما في البيت عندما قدمت الجنية. ولكنه حالما رأى ظل قدميها استولى عليه الخوف، فأغلق الباب وتوقف عن العمل. وصلت الجنية إلى الباب فوجدته موصداً، وانتظرت فلم يفتح لها الباب، فتسلقت جذع شجرة محاذية لسور البيت، قفزت القدر قفزتان وفي القفزة الثالثة أصبحت على السور.

جاء الليل ولكن القدر لم تعد. عادت الزوجة من رحلتها ولم تجد أثراً للقدر.

فسألت زوجها: «أين القدر؟».

فأجاب الرجل: «حسناً إذن، فلتعلمي أني لا أكترث أين هي القدر، فلم أشعر قطّ بمثل ذاك الخوف الذي شعرت به عندما جاءت الجنية، فأغلقت الباب بوجهها فلم تعدها».

زجرته قائلة: «لا نفع يرتجى منك أيها التعس، ما الذي فعلته؟ هناك اثنان سوف يتضرران من فعلتك هما أنت وأنا». لكن الزوج حاول أن يهدأ من روع زوجته فقال: «سوف تعيدها غداً».

لكن الزوجة كانت متيقنة من أن ذلك لن يحدث: «سوف لن تعود أبداً».

حسمت المرأة أمرها بأن الجنية لن تعود فمضت هي لزيارتها. مشت حتى وصلت إلى الهضبة، وكان الوقت متأخراً بعد العشاء فلم يكن الرجال في البيت، بل كانوا خارجين في جنح الظلام. دخلت بهدوء وسرعان ما رأت القدر فحملتها ومضت. شعرت بالقدر ثقيلة إذ كان فيها بقايا طعام. كان داخل البيت رجل مسنّ وعندما رآها تذهب قال:

«الزوجة الصامتة، الزوجة الصامتة،

التي قدمت إلينا من أرض المطاردة،

أنت أيها الرجل على سطح الدكة،

حرر الأسود وأطلق المفترس»

وهكذا فك وثاق الكلبين ولم تكن ابتعدت كثيراً حتى سمعت صوت نباحها. احتفظت ببقايا الطعام التي في القدر فإن استطاعت فمن الجيد أن تأخذها للبيت، وإن لحقها الكلبان فسوف ترمي لهما بالطعام. وبعد قليل لمحت

الكلبين يقتربان منها، فغمست يدها في القدر ورمت ببعض ما كان فيها إلى الكلبين، فأعاقتهما قليلاً وهما ينظران إلى الطعام. ثم شعرت بهما يقتربان ثانية، فرمت بقبضة أخرى من الطعام ومشت بأقصى سرعتها، وعندما أصبحت على مقربة من المزرعة قلبت القدر إلى الأسفل لتترك للكلبين كل ما كان في القدر. انفجر كلاب القرية بالنباح عندما رأوا كلاب الجنّ في الجوار، ولم تعد الجنية أبداً لتستعير القدر.

جنيات الماء

دراكا هي نوع من أرواح الماء التي تستدرج النساء والأطفال، لكي تستدرجهم إلى الحفر التي تسكنها تحت البحيرات والأنهار. والنساء اللواتي تستولي عليهن، توظفهن كممرضات وتسمح لهن بزيارة الأرض مرة ثانية بعد سبع سنوات.

ذكر جيرفاس التيلبيري[1] امرأة بعينها كانت قد أغويت عبر رؤيتها طبقاً خشبياً، أو كوباً يطفو بالقرب منها على سطح الماء بينما كانت تغسل ثيابها في النهر.

وبعد أن تم الاستيلاء عليها واقتيادها إلى العمق، إلى أحد الحفر تحت الأرضية والتي وصفتها بأنها عظيمة وكبيرة، تم توظيفها كممرضة لأحد أبناء الجنية التي أغوتها. وخلال إقامتها هناك وعملها بهذه الوظيفة، وبشكل غير مقصود لمست عينها بمرهم من شحم الأفاعي، وأدركت لاحقاً بعد أن عادت إلى الأرض، أنها امتلكت القدرة على رؤية الجينات

(1) كاتب إنجليزي عاش في القرن الثالث عشر (م).

وهن يتمازجن ويختلطن مع البشر. ولكنها حرمت من هذه القوة لأنها خاطبت سيدتها الشبحية دون أن تنتبه، فلمستها وجردتها من القدرة على رؤية الجن.

ومما يثير الفضول حقيقة، أن هذه القصة وبكل تفاصيلها تقريباً ما زالت منتشرة في اسكتلندا، بمرتفعاتها ومنخفضاتها، دون أي تغيير يذكر باستثناء استبدال دراكا بالجنيات، وكهوف الهضاب بدلاً من حفر الأنهار. وفي الحقيقة فإن الكثير من العامة ما زالوا يعتقدون بأنه من الخطر أن تلمس أي شيء تجده دون أن تباركه، حيث أشراك الشياطين مشهورة وموثقة.

وفيما يلي قصة امرأة تعرض صحة هذه الحقيقة.

كانت امرأة مسكينة من تيفيوتديل وقد حالفها الحظ كما اعتقدت للوهلة الأولى لأنها وجدت مدقة خشبية، تماماً في الوقت الذي كانت بأمس الحاجة لها، فأمسكت بها وأخذتها إلى بيتها دون أن تباركها، ووضعتها على سريرها لتكون جاهزة للاستعمال في الصباح. وفي منتصف الليل فتحت نافذة كوخها وسمعت أصواتاً غريبة تنادي أحداً ما في الداخل باسم غريب.

نهضت المرأة بسرعة وبدأت تتلو صلاة، وسنفترض أنها كانت تصلي لإنقاذ نفسها من أي شر، وفي حين انشغلت بصلاتها، وقفت المدقة على السرير وقفزت من النافذة دون أن تصدر أي صوت أو ضجة.

الانتقال بواسطة الجن[1]

لا تقتصر سلطة أو قوة الجن على الأطفال غير المعمدين، بل تمتد لتشمل الأشخاص الراشدين أيضاً، وخاصة في الأوقات القليلة الحظ، أو ساعات الشيطان كما يسمونها، أو نتيجة لعنة لحقت بهم من الوالدين أو الأسياد. كما تشمل أولئك الذين يجدهم الجن نياماً بعد غياب الشمس على الصخور أو الهضاب الخضر التي تسيطر عليها. أو أخيراً أولئك الذين انضموا إلى الجن طوعاً من خلال عربدتهم وإلحادهم.

في القرن السابع عشر كانت هناك حكاية معروفة تتعلق بأسرة دافوس النبيلة، وتقول الحكاية:

كان دافوس يتنزه في الحقول بالقرب من بيته عندما حُمل فجأة، ليجدوه في اليوم التالي في باريس في قبو الخمر الخاص بملك فرنسا، يحمل بيده دناً من الفضة. وعندما استدعي للمثول أمام الملك وسأله من يكون ومن أين قدم وكيف وصل إلى هناك.

(1) سير والتر سكوت، من مجموعة أغاني الحدود الاسكتلندية.

أخبر الملك باسمه واسم بلده والمكان الذي يسكن فيه! وبعد التحقيق اكتشفوا بأنه في اليوم السابق لوجوده في القبو كان يتنزه في الحقول وقد سمع ضجة زوبعة غبار، وأصواتاً تهتف «هورس أند آتـوك»! (وكان معروفاً آنئذ بأن هذا الصوت تستخدمه الجنيات عندما تنقل شخصاً من مكان إلى آخر) وعندما ردد بنفسه الصوت «هورس أند أتوك» فقد حُمل مباشرة، ونقل عبر الأثير من قبل الجنيات ليجد نفسه في ذاك المكان حيث وجد. فبعد أن شرب حتى الثمالة سقط نائماً، وقبل أن يصحو كان بقية من كانوا في صحبته قد غادروا وتركوه وحيداً في المكان والحالة التي وجد بها.

•

ويقال إن الملك قدّم له دن الفضة الذي كان لا يزال يحمله بيده. ويؤكد الراوي أن الدن ما زال موجوداً إلى الآن وهومعروف باسم «دن الجنيات». ويضيف أن السيد ستيوارد الذي كان حينئذ مرشد اللورد دافوس قد أبلغه بأنه: «عندما كان صبياً في مدرسة فورس، كان وزملاؤه يوما واقفين على باب الكنيسة يجلون الغبار عن ستراتهم، وبالرغم من أن الجو في ذاك اليوم كان صافياً إلا أنهم سمعوا صوت ريح، وعلى مسافة قصيرة منهم رأوا دوامة من الغبار

تتصاعد في وتتجه نحوهم، وحينها بدأوا بمباركة أنفسهم. وكان أحد الصبية يتميز بشعره الأشقر وثقته بنفسه أكثر من الجميع، وبدلاً من أن يبارك نفسه أخذ يهتف: «هورس أند أتوك سترتي». ومباشرة رأى الجميع سترة ذاك الصبي تطير مع زوبعة الغبار في الجو. ولكن لم يستطيعوا تحديد الاتجاه الذي طارت به. ورغم أنهم بحثوا عن السترة في جوار المكان التي طارت فيه لكن دون جدوى، ولكنهم وجدوها بعد ذلك في الطرف الآخر من باحة الكنيسة.

رجل بيتلو المسكين[1]

فيما يلي قصة من قصص مزاح الجن الذي يقال إنه كان يحدث في أواخر القرن الماضي. وضحية لعبة الجن تلك كان رجلاً مسكيناً يعمل في نقل نبات الخلنج على هضبة بيتلو في مقاطعة سيلكيرك شاير.

بعد يوم عمل طويل شعر الرجل بالتعب واستلقى لينام، ولكنه نام في حلقة الجن. عندما استيقظ كانت دهشته عظيمة لأنه وجد نفسه وسط مدينة مزدحمة، وكغرابة الطريقة التي انتقل فيها إلى المدينة كانت لهجته غريبة عنها أيضاً، كما كان هو نفسه. بقي معطفه على هضبة بيتلو، أما قبعته فسقطت خلال رحلته الأثيرية تلك، وقد وجدت فيما بعد معلقة على برج كنيسة لانارك. وما فرج كربة الرجل، هو لقاؤه حمّالاً آخر كان يعرفه، والذي أعاده

(1) سير والتر سكوت، من مجموعة أغاني الحدود الاسكتلندية.

لاحقاً إلى سيكيريك. ولكن كانت عودته بطيئة على عكس الطريقة التي حُمل بها مع الرياح إلى غلاسغو. والجميع صدقوا قصة أن الجنّ نقلوه، باستثناء أولئك الذين يعتقدون أن لدى الرجل أسبابه الخاصة لمغاردة بلده بطريقة غامضة، وقد فضل أن يخفي أنه غادر بلده عامداً.

صبي الجنّ في ليث[1]

كان الكابتن المرموق جورج بيرتن قد أخبر النبيل ريتشارد بوفيت صاحب العمل الروائي المميز «باندامينيوم» أو «انفتاح دير الشيطان». القصة التالية عن صبي في ليث، يدعى صبي الجنّ، والذي كما تقول الحكاية، كان يعمل طبالاً لصالح الجن في موعد أسبوعي، حيث يلتقيهم في هضبة كالتون بالقرب من أدنبره. وفيما يلي القصة كما رواها:

«منذ زهاء خمسة عشر عاماً، كان يقتضي عملي أن أبقى في ليث بالقرب من أدنبره في مملكة اسكتلندا، وكنت في تلك الأثناء ألتقي بعض معارفي في بيت مساعد لي هناك، حيث كنا نشرب بعض الكؤوس مع الطعام. وكانت صاحبة البيت تمتاز بسمعة طيبة وثقة بين الجيران، مما جعلني أهتم بما تخبرني به. وفي أحد الأيام أخبرتني قصة صبي الجنّ (كما كانوا يدعونه)

(1) مقاطعة تقع إلى الشمال من أدنبره (م).

والذي كان يعيش في أحد أحياء البلدة. أثارت قصتها الغريبة فضولي إلى درجة أني رجوتها وجعلتها تقطع لي وعداً بأن تتيح لي التعرف إليه في أقرب فرصة ممكنة. ولم تخلف بوعدها، وما هي إلا فترة قصيرة حتى كنت أمر بها، وإذ بها تشير إلى صبي في الشارع وتقول: «هذا صبي الجنيات الذي حدثتك عنه». ولكن قبل أن أنظر إلى حيث كانت تشير بعينها قالت لي: «انظر يا سيدي إنه هناك يلعب مع الصبية»، ووصفته لي. ثم ذهبت واستطعت بكلمات لطيفة وبعض النقود أن أجلبه معي إلى داخل البيت، وهناك وبحضور عدد من الناس سألته مجموعة من الأسئلة الفلكية، وأجاب عليها كلها بذكاء مميز. وقد كانت إجاباته كما طريقة حديثه أكبر كثيراً من عمره الذي لا يتجاوز العشر سنوات أو الإحدى عشرة سنة.

«وبينما كان الطفل يقوم بحركات نقر على الطاولة تشبه ضرب الطبل، أتيحت لي الفرصة لأسأله، إذا كان يستطيع أن يضرب على الطبل؟ وكان جوابه قاطعاً: «بالطبع يا سيدي، كما يستطيع أي رجل في اسكتلندا، فأنا كل خميس أعزف كل الألحان أمام حشد من الناس الذين اعتادوا أن يلتقوا هناك تحت تلك الهضبة. (وأشار إلى هضبة كبيرة تقع بين

ليث وأدنبره).

سألت متعجباً: «كيف ذلك يا بني؟ وأيّ نوع من الأشخاص تلتقي هناك؟».

«هناك يا سيدي الكثير من الرجال والنساء الذين يستمتعون بالكثير من أنواع الموسيقى الأخرى بالإضافة إلى طبلي، كما أن لديهم الكثير من الطعام والشراب من اللحم والخمر، وفي بعض الأحيان نحُمل إلى فرنسا أو هولندا في الليل وثم نعود ثانية بعد أن نكون قد استمتعنا بكل الملذات التي في كل بلد».

ثم سألته كيف ينزلون تحت تلك الهضبة؟ وأجاب بأن هناك بوابة ضخمة تفتح لهم بالرغم من أنها مخفية عن أنظار البقية، وفي الداخل هناك غرف واسعة وضخمة، مفروشة بأثاث يشبه معظم بيوت اسكتلندا. ثم سألته: «وكيف أستطيع أن أصدق أن ما تقوله هو حقيقة؟»، ورداً على سؤالي، ولإثبات صحة قصته عرض أن يقرأ طالعي، فقال لي إنني سأتزوج وأنجب طفلتين وإنه رأى صورتيهما وهما تجلسان على كتفي وبأن كلتاهما جميلتين. وبينما كان يتحدث دخلت امرأة من الجوار وطلبت منه أن يقرأ طالعها هي أيضاً، فأخبرها بأنها رزقت بابني زنا قبل أن تتزوج، وما إن سمعت المرأة ذلك حتى شعرت بكثير من

الحرج، ورجته ألا يتابع.

«أكدت لي صاحبة المنزل أن كل سكان اسكتلندا لا يمكنهم منعه من الذهاب إلى موعد يوم الخميس، وأثار كلامها فيّ التحدي. فقبل أن أتركه يذهب وعدته بمزيد من النقود، وأخذت منه وعدا بأن يأتي إلى المكان نفسه في ظهيرة الخميس التالي. جاء الصبي في الموعد المحدد وكنت قد اتفقت مسبقاً مع بعض أصدقائي أن يبقوا معي ويساعدوني كي نحاول منعه من الانضمام للجنّ في تلك الليلة.

كان يجلس في وسطنا ويجيب على العديد من أسئلتنا إلى أن حانت الساعة الحادية عشرة، حيث اختفى دون أن يلحظه أي منا، ولكني فجأة لاحظت غيابه. فأسرعت إلى المشرب وأمسكت به وأعدته إلى الغرفة نفسها وبقي تحت رقابة الجميع ومجدداً وبشكل مفاجئ أيضاً اختفى ثانية. تبعته حتى أصبحت على مقربة منه فبدأ يصرخ، وأثار ضجة في الشارع وكأنه تعرض للاعتداء، ومنذ ذلك الوقت لم يعد أحد يراه».

الفلاحان الشابان

قال جوني نيكلسون: «لابـدّ من أنـك زرت القلعة، حسناً، ستجد هناك قطعة أرض مسطحة بالقرب من مزرعة إيترك، تلك الأرض كانت يوماً بحيرة كبيرة، وعلى الطريق الممتد من هناك لا تزال بقايا طاحونة كانت تدور على مياه البحيرة في ذاك الوقت. وفي إحدى الليالي تقريباً بعيد يوم الهلوين[1] ذهب فلاحان شابان إلى دكان الحداد لإحضار محراثيهما وسكتيهما اللتان وضعاها للتصليح. وعند مرورهما بالطاحونة في طريق عودتهما سمعا صوت موسيقى ورقص وصخب وغناء وضحك وكلام. دفع الفضول أحدهما فدخل الطاحونة ليستطلع الأمر وبقي الآخر ينتظره. مرت ساعات والشاب ينتظر ولكن رفيقه لم يعد أبداً، فذهب وحيداً إلى البيت وأكد للجميع

(1) عيد جميع القديسين: احتفال ديني يتم في عشية 31 أكتوبر يرتدي فيه الأطفال أزياء مضحكة ويدورن من بيت إلى بيت ويجمعون الحلوى (م).

أن الجن أمسكوا به ومنعوه من العودة. وفي الوقت نفسه من العام التالي أراد الشاب نفسه الذهاب إلى دكان الحداد للغرض ذاته فأخذ معه رفيقاً آخر، وللاحتياط وضع في جيبه الكتاب المقدّس. وتكرر الأمر نفسه مجدداً، حيث عند مرورهما بالطاحونة، سمعا جلبة الغناء والرقص، لكنه كان هذه المرة مطمئناً لوجود الكتاب المقدس معه. أراد الشاب أن يغامر ويرى بنفسه ما الذي يجري هناك. وعندما أطل من باب الطاحونة رأى رفيقه الذي تركه هناك قبل عام كامل، فناوله الكتاب المقدس وفي اللحظة التي فعل فيها ذلك توقفت الموسيقى والغناء وانطفأت الأضواء وعم الظلام».

الجنّ والحداد

منذ سنوات خلت، عاش في كروسبيرغ حـداد يدعى ماكيتشرن، وكان له ولد وحيد في الرابعة عشرة من العمر تقريباً. كان الولد قوياً بهيجاً وافر الصحة. وفجأة سقط طريح الفراش مريضاً كئيباً، ولم يستطع أحد أن يعرف سبب مرضه، وما الذي حدث له. كما أنه رفض هو نفسه التعبير عما يشعر به. وصار يذوي يوماً بعد الآخر ويصبح نحيفاً شاحب اللون هرماً. تملك الفزع أباه وأصدقاءه واعتقدوا أنه على وشك الموت.

أخيراً وبعد مرور طويل على الصبي وهو على هذه الحال، ووضعه لا يتحسن ولا يسوء، باستثناء أن شهيته للطعام كانت غير طبيعية. كان الحداد يجلس في دكانه حزيناً يفكر في هذه الأمور وقد فقد رغبته بالعمل، وإذا بشيخ يعرفه جيداً برجاحة عقله وسعة معرفته واطلاعه على الأمور الخارقة للطبيعة، يدخل فجأة إلى دكانه. فحكى له الحداد قصته وأخبره عن الحدث الذي نغص عليه حياته.

أصغى الشيخ لقصة الرجل باهتمام وتأثر شديدين، وبعد وقت طويل من التفكير والتمعن فيما سمعه قدّم له رأيه وأخبره: «الولد الذي في بيتك ليس ابنك، لقد أخذ الجن ابنك وتركوا هذا في مكانه».

قال الحداد: «واحسرتاه! وماذا عليّ أن أفعل؟ وهل أستطيع أن أرى ولدي مجدداً؟».

قال الشيخ: «سوف أقول لك ماذا يجب أن تفعل، ولكن أولاً عليك أن تتأكد من أن الولد الذي في بيتك ليس ولدك. اجمع ما استطعت من قشور البيض وادخل بها إلى الغرفة، ثم وزعها بحذر في أرجاء الغرفة أمام ناظريه، بعد ذلك انقل الماء في قشور البيض وأنت تحمل كل قشرتين في يديك، وتظاهر بأن وزن الماء ثقيل جداً وحالما تمتلئ القشور بالماء رتب أن تسقط بكل جدية حول النار».

جمع الحداد قشور البيض واتبع إرشادات الشيخ بحرفيتها.

وقبل أن يكمل عمله بها، صدر صوت ضحك عال من السرير وهتف صوت من المفترض أن يكون صاحبه هو الصبي المريض المزعوم.

«أبلغ من العمر ثمانمئة عام ولم أر في حياتي مثل ذلك».

عاد الحداد إلى الشيخ وأخبره بما حصل.

أجاب الرجل الحكيم: «حسناً إذن، لم أقل لك إن الولد المزعوم ليس ولدك. ولدك في بروتشيل في هضبة هناك (هضبة خضراء دائرية مسكونة بالجن). اطرد هذا المتطفل من بيتك في أقرب فرصة ممكنة، وأعتقد أنني أستطيع أن أعدك بأن أعيد لك ولدك».

أضاف: «لكي تطرد هذا المتطفل يجب أن تشعل ناراً كبيرة أمام السرير الذي يستلقي فيه الغريب، وعندما يسألك لماذا كل هذه النار؟ أجبه على الفور: سوف تعرف ذلك قريباً! ثم أمسكه به وارمه في وسط النار، إذا كان ولدك فسوف يحاول أن يطلب منك النجدة، وإن لم يكن فسوف يطير من خلال السقف».

مرة أخرى تبع الحداد نصيحة الرجل الحكيم، فأوقد ناراً كبيرة وأجاب عن سؤال الغريب كما تم إرشاده، ثم أمسك بالطفل ورماه في النار دون أدنى تردد فصرخ صرخة مرعبة وفرّ من السقف مخلفاً حفرة خرج منها الدخان بعد رحيله.

ثم أخبر الرجل الحصيف الحداد بأن الهضبة الخضراء التي يسكنها الجنّ تفتح في ليلة محددة، وفي تلك الليلة سوف يحمل الحداد الكتاب المقدس وخنجراً وديكاً ويذهب إلى الهضبة. وهناك سوف يسمع غناءً ورقصاً والكثير من الهرج والمرج، ولكن عليه أن يتقدم بجرأة حاملاً الكتاب المقدس الذي سيكون حارسه ويحميه من خطر الجنّ. وحالما يدخل عليه أن يضع الخنجر في المدخل لكي يمنع الرابية من الانغلاق عليه وهو بداخلها. وتابع الحكيم: «بعد ذلك، حالما تدخل الهضبة سوف تجد شقة كبيرة نظيفة وجميلة، وهناك في الداخل وعلى بعد مسافة سوف ترى ابنك. وفي حال سؤالك عن سبب قدومك فأجب بأنك جئت تبحث عن ولدك وأنك لن ترحل من دونه».

لم ينتظر كثيراً بعد ذاك اليوم حتى جاء الموعد المحدد فأعد الحداد عدته حسب تعليمات الرجل الحكيم وانطلق في رحلته باتجاه الهضبة المحددة. وهناك رأى ضوءاً قلما كان يرى من قبل. ولم يطل به الأمر حتى سمع الأنغام والرقص والصخب، حملتها ريح الليل إلى أذان الوالد القلق.

غالب الحداد كل نبضة خوف، واقترب بثبات وشجاعة من المدخل. غرز خنجره حسب التعليمات ودخل حاملاً الكتاب

المقدس على صدره، مطمئناً إلى أنه بأمان. فلم يستطع الجن لمسه بل سألوه بلهجة فيها الكثير من الاستياء عما جاء يفعله. وأجاب: «أريد ولدي، رأيته هنا ولن أذهب من دونه».

ضحك جميع من سمعوا جوابه ضحكاً مجلجلاً، مما جعل الديك الذي كان يغط في النوم على ذارعه يصحو. قفز الديك فوراً على كتفيه وصفق بجناحيه بقوة ثم صاح صيحة عالية طويلة.

اختفى الجن فوراً، ثم حملوا الحداد وابنه ورموهما خارج الهضبة واقتلعوا الخنجر وأغلقوا الهضبة خلفهم فحل ظلام مطبق على المكان.

قضى الولد عاماً ويوماً واحداً دون أن يعمل أو يتكلم، ثم أخيراً في ذاك اليوم بعد انقضاء عام، كان الولد يجلس ويراقب والده يصنع سيفاً ويزينه ويوليه اهتماماً خاصاً لأنه لأحد الزعماء، فصاح به الولد فجأة: «هذه ليست الطريقة الصحيحة لصنع هذا السيف». ثم أخذ الأدوات من والده وجلس مكانه وبدأ يعمل. وبسرعة صمم سيفاً مميزاً لم ير أحد مثله في البلدة من قبل. ومنذ ذلك اليوم يعمل ذاك الشاب وأبوه بجد ومثابرة، وأصبح مبدع السيوف الجميلة والمميزة. ودر عليهما عمله المتقن الكثير من العمل وشاعت شهرتهما في طول البلاد وعرضها.

زوجة فلاح لوثين

اختطفت الأشباح في منطقة لوثين زوجة فلاح، وخلال السنة الأولى من اختطافها وهي سنة الاختبار، كانت تظهر دورياً أيام الآحاد بين أطفالها وتمشط شعورهم. وفي أحد هذه الأيام رآها زوجها فقصت عليه الحدث المشؤوم الذي حرمها منه ومن أطفالها، وزودته بإرشادات يستطيع من خلال تنفيذها أن يحررها ويستعيدها. كما رجته وحذرته أن يبذل كل ما في وسعه ويتحلى بالشجاعة الكافية لأن سعادتها الآنية والدائمة تعتمد على نجاح محاولته. ذهب الزوج الذي أحب زوجته بجنون، في يوم الهلوين واختبئ في الأجمة بين الأغصان ينتظر بفارغ الصبر مرور موكب الجن. ولكنه عندما سمع صوت لجم الخيول والأصوات غير المألوفة لموكب الخيالة استولى عليه الخوف، ولم يقو على مقاطعة القطار الشبحي عندما مر به، فاكتفى بالألم وهو يرقبهم يعبرون. وعندما اجتازه آخر نفر اختفى حشد الجن وبقيت أصوات ضحكاتهم تجلجل في الفضاء. واستطاع أن يميز بين الأصوات صوت نواح زوجته التي خسرها إلى الأبد.

العودة من أرض الجنّ

عاش جيمس كامبل في مكان بجوار قرية أبيردين في اسكتلندا، وكانت له ابنة وحيدة تدعى ماري، تزوجت من أحد أبناء الجيران يدعى جون نيلسون. بعد زواجهما بفترة قصيرة انتقل الزوجان إلى أبيردين حيث كان الزوج الشاب يعمل صائغ ذهب، وعاشا بسعادة ومحبة حتى اقترب موعد ولادة الزوجة. وقد وظفا خادمة لهذا الغرض، ولكن قرابة منتصف الليل سمعوا صوتاً غريباً، وعلى إثره انطفأت القناديل، فشعرت الخادمة بكثير من الارتباك وكادت أن تفقد عقلها. وحالما استعادت الخادمة وعيها استدعت الجيران، وبعد أن أضاءوا القناديل وجدوا المرأة جثة هامدة مما أصاب الأسرة بالذعر. حزن الزوج حزناً عظيماً. وفي الصباح التالي أعد لها مأتماً كبيراً حضره جميع الناس، وكان بين الحاضرين الكاهن السيد دود الذي حالما رأى الجثمان قال: «هذه الجثة ليست لأي مسيحي، وإن السيدة نيلسون

قد اختطفها الجنّ وتركوا مكانها جسداً ما». ورغم أن أحداً لم يصدقه إلا أنه رفض حضور الجنازة. فأبقوا الجثمان تلك الليلة ليدفنوها في اليوم التالي.

وذات مساء بعد الغروب كان الزوج يتنزه في حقوله عندما سمع فجأة أعذب موسيقى سمعها في حياته، ثم لمح امرأة ترتدي الأبيض قادمة باتجاهه. كانت محجبة فلم يستطع التعرف عليها، ومع ذلك اقترب منها وسألها بلطف ما الذي دفعها لتمشي وحيدة في هذا الوقت المتأخر من المساء؟ ورداً على سؤاله كشفت حجابها وانفجرت بالبكاء، وأخبرته بأنه محظور عليها أن تكشف هويتها. لكنه عرف فوراً أنها زوجته. واستحلفها بالله أن تخبره ما الذي يفزعها وما الغرض من حضورها في تلك الساعة؟ فأجابته بأن حضورها في أي ساعة لا يهم: «لقد صدقت أني مت ودفنتني، وفي الحقيقة أنا لم أمت بل اختطفني الجن في اليوم الذي وضعت فيه طفلي، والجثة التي دفنتها لم تكن سوى قطعة من الخشب. يمكنك أن تنقذني إذا استخدمت الطريقة الصحيحة، أما بالنسبة للطفل فهناك ثلاث ممرضات يعتنين به وأخشى أن من الصعب استعادته. والشخص الوحيد الذي أعتمد عليه لإنقاذي هو أخي روبرت، القبطان في سفينة تجارية، وسوف يعود إلى البيت بعد عشرة أيام».

سألها زوجها عن الطريقة الصحيحة التي يجب أن يتبعها لإنقاذها، فأخبرته بأنه سوف يجد رسالة في صباح الأحد التالي على مكتبه في غرفته موجهة لأخيها، وفيها إرشادات كيفية الفوز بها. «منذ اللحظة التي أبعدت فيها عنك فأنا في رفقة ملكة أو إمبراطورة، وإذا نظرت من فوق كتفي الأيمن فسوف ترى العديد من رفقائي». ثم نظر كما أشارت له وعلى بعد مسافة قصيرة شاهد ملكاً وملكة يجلسان بالقرب من الرابية على عرش فيه الكثير من الأبهة والجمال.

ثم نظر يميناً ويساراً كما طلبت منه فرأى ملوكاً آخرين بجانب كل من الملكة والملك.

قال الزوج: «هذه حراسة مشددة، يبدو أنه من المستحيل إنقاذك من مثل هذا المكان».

فأجابته: «لا، لو كان الآن أخي روبرت مكانك لأخذني إلى البيت. لكن لا أريدك أن تفهم كلامي هذا على أنه تشجيع فتحاول أن تقوم بالأمر بنفسك، فبذلك قد تخسرني إلى الأبد. ولكني سأطلب منك أمراً آخر فأنا الآن مهددة بعقوبة شديدة لأني تحدثت إليك، ويمكنك أن تمنع ذلك إذا ذهبت إلى الرابية حيث (ولنفترض أنك سوف لن ترى أحداً) كل ما رأيته الآن سيكون

بالقرب منك، وهناك سوف تهدد بحرق الأشواك الكبيرة وكل أشجار العليق التي حول الرابية إذا لم تحصل على وعد قاطع بأني لن أعاقب. وهكذا سوف يغفرون لي ويعفونني من العقاب».

وعدها الزوج بفعل ذلك وبعدها اختفت ولم يعد يرى شيئاً مما رآه. ركب الزوج حصانه وتوجه إلى الرابية حيث أشارت له، وبدأ يدور حولها ويقسم بأنه سوف يحرق كل ما حولها إن لم يحصل على وعد قاطع بألا يصيب زوجته أي أذى. وسمع صوتاً طلب منه أن يرمي الكتاب الذي كان في جيبه ثم يعيد طلبه من جديد. فأجاب بأنه لن يفترق عن كتابه وإن لم يحصل على الوعد الذي يطلبه فستكون عاقبتهم وخيمة.

ثم أجابه الصوت بوعد شرف، بأن زوجته لن تعاقب وسوف يُغفر خطؤها، ولكن بالمقابل أن يعد هو بألا يعود مجدداً إلى الرابية. فأعطى وعداً بذلك وبعدها سمع موسيقى عذبة فعاد إلى البيت. حالما وصل إلى البيت أرسل في طلب الكاهن السيد دود وأخبره بما رأى، فبقي الكاهن معه حتى صباح الأحد التالي، عندما نظر السيد نيلسون على مكتبه فوجد رسالة. نظر إلى الرسالة فوجدها موجهة إلى أخ زوجته الذي عاد إلى البيت بعد بضعة أيام. وعندما تلقى الأخ الرسالة فتحها على الفور وفيما يلي نصها:

«أخي العزيز، سوف يخبرك زوجي بظروفي الحالية. أطلب منك (في الليلة التالية لتسلمك رسالتي) أن تأتي إلى الهضبة حيث افترقنا أنا وزوجي. لا تدع شيئاً يثبط همتك أو يخيفك بل قف في وسط الهضبة عند منتصف الليل تماماً وناديني، وسوف أحيط بك أنا ومجموعة من الأخريات، ولكني سوف أرتدي ثوباً أكثر بياضاً من ثيابهن وحالما تميزني أمسك بي ولا تتركني مهما حدث. سيحاولون إخافتك بطرق شتى فلا تجفل وابق ثابتاً حتى لو استمر ذلك إلى أن تصيح الديكة، فعندها سوف يتلاشون فجأة وسأكون في مأمن. وعندما أعود للبيت سالمة سوف أعود لأعيش مع زوجي. وإن نجحت في إنقاذي فسوف تحظى بإطراء جميع محبيك وسوف تباركك أختك التي تحبك إلى الأبد».

ماري نيلسون

وحالما قرأ روبرت الرسالة أقسم بأنه سوف يستعيد أخته وطفلها، حتى لو كلفه ذلك حياته. عاد إلى السفينة وأخبر بحارته بمحتوى الرسالة وانتظر هناك حتى الساعة العاشرة وقد اقترح بحارته الأوفياء مرافقته ولكنه رفض معتقداً أن من الأفضل أن يذهب وحده. وما إن غادر السفينة حتى رأى أسداً مخيفاً يزأر متجهاً نحوه فاستل سيفه وضربه ولكنه لاحظ أن الأسد كان

مجرد طيف يهدف إلى إخافته وردعه عن محاولته فقط. ولكن ذلك زاد من إصراره فتقدم باتجاه الهضبة، فوجد في مركزها منديلاً أبيض محاطاً بعدد من النساء ينحن بطريقة مروعة لم يسمع مثلها قط، وسرعان ما تعرف أخته من ثوبها الذي كان أشد بياضاً من أثواب الأخريات. فأمسك بيدها اليمنى وقال: «بعون الله سوف أنقذك من ربق هذه الشياطين اللعينة، على الفور بدت له الهضبة وكأن حريقاً قد اندلع حوله. وسمع أصوات رعد مخيف، وطيور مروعة وحيوانات بدت كأنها تهاجمه من خلال النار، ولكنه كان على يقين بأنها ليست حقيقية فلم تتزعزع عزيمته، وظل ممسكاً بيد أخته لمدة تقارب الساعتين. وحين بدأت الديكة بالصياح، اختفت النار فحضن أخته بين ذراعيه وسقط على ركبتيه وصلى وشكر ربه لأنه منحه الشجاعة ليصمد تلك الليلة. ثم لاحظ أن أخته ترتدي ثياباً خفيفة، فخلع معطفه ووضعه على كتفيها فعانقته وأخبرته بأنها الآن في مأمن لأنه غطاها بثيابه ثم عاد بها إلى بيت زوجها الذي لاقاها بفرح عارم.

أقسم الأخ والزوج بأنهما سوف يحرقان الهضبة كلها انتقاماً للطفل وعلى الفور سمعا صوتاً يقول: «سوف تستعيدان الطفل سالماً شريطة ألا تقربا الأرض على مسافة ثلاث قصبات

من الهضبة، وألا تحرقا الغصون والأشجار حول المكان. وفي غضون دقائق بعد أن وافقا على الشرط وضع الطفل في حضن أمه. فركع الجميع يشكرون الله.

وتقول الحكاية إن ملابسات هذه القضية المروعة قد حدثت نتيجة لترك السيدة نيلسون أثناء ولادتها في عهدة امرأة مخمورة معظم الوقت.

الجنية وقارئ الكتاب المقدس[1]

ذات سبت من أيام الصيف الهادئة، كان شيخ مسنّ يجلس في الهواء الطلق في بقعة هادئة على شاطئ روس شاير ويقرأ في الكتاب المقدّس، عندما اقتربت منه سيدة جميلة متشحة بالأخضر، وخاطبته بصوت فضي الرنين تريد أن تعرف إذا كان في الكتاب المقدس أي أمل لأمثالها بالخلاص. أجابها الشيخ بلطف بأن بين صفحات الكتاب المقدس لا ذكر للخلاص إلا لأبناء آدم الخطأة. وحالما سمعت جوابه، رفعت الجنية ذراعيها بيأس فوق رأسها وصرخت وغطست في البحر.

(1) كامبل، الحكايات الشائعة في المرتفعات الغربية.

توم وويلي[1]

توم وويلي كانا رفيقي صيد في جزيرة لونا في شيتلاند والأهم أنهما كانا يتنافسان على خطب ود أوسلا الجميلة ابنة جارم. وحدث في أحد أيام أكتوبر أن ذهب الاثنان في رحلة صيد في المركب، وقبيل الغسق، هبت ريح قوية وبدأت تشتد رويداً رويداً حتى أجبرت الشابين على الهروب إلى أقرب مأوى. فتوجها إلى ملاذ في جزيرة لينغا في ويلسي ساوند، وسرّا لوصولهما بالسلامة. كانت الجزيرة غير مأهولة، ولم يكن مع الصيادين طعام أو أي وسيلة لإشعال النار، لكنهما عثرا على الأقل على سقف يحمي رأسيهما. حيث كان في الجزيرة كوخ اعتاد الصيادون أن يستخدموه في مواسم الصيد، في أوقات يكون فيها الطقس معتدلاً، ولكنه يُهجر بعد انتهاء الموسم. استمرت العاصفة ليومين متتاليين دون توقف، وبدأ الطقس يصبح خطيراً. في صباح اليوم الثالث وقبيل بزوغ الفجر صحا ويلي قبل صاحبه، واكتشف أن الجو أصبح معتدلاً والريح تهب بالاتجاه المناسب، فانتهز الفرصة

(1) دراسة أعدها السيد ج. ج. أو لاسن كرسالة ماجستير.

دون أن يوقظ توم وذهب إلى المركب الذي كان مربوطاً بأمان على الشاطئ، وبكثير من الجهد استطاع أن يحرره، وأبحر عائداً إلى جزيرته. في هذه الأثناء استيقظ توم ولم يجد ويلي، وعندما تأخر في العودة ذهب يبحث عنه على الشاطئ في المكان الذي ركنا المركب فيه، وحين وجد مكان المركب خالياً تملكه الفزع. ولكنه حين نظر إلى البحر لمح المركب على مسافة بعيدة يبحر مسرعاً باتجاه لونا. وهذا المنظر جعل توم المسكين يستسلم لليأس، لأنه أدرك أن رفيقه قد تركه هناك بدناءة ودون أدنى رحمة، وهو يدرك أنه من غير المحتمل أن يزور أحد تلك الجزيرة إلى أن يحين موسم الصيد ثانية. ويحدوه أمل ضئيل جداً بأن يحاول رفاقه البحث عنه لأنهم يجهلون أين سيبحثون.

مع الكثير من الأفكار السوداوية والهواجس، مرّ اليوم بطيئاً جداً على توم، وعند حلول الليل حاول أن يغفو على سرير من القش داخل الكوخ، وفي الظلام غط في النوم. وفي الساعات القليلة التي تسبق الصباح استيقظ فجأة وغمرته الدهشة عندما رأى الكوخ مضاءً بإضاءة غريبة، وسمع ثرثرة وهمهمة غير إنسانية وغريبة تختلط بوقع أقدام كثيرة وصغيرة. وخشخشة الأواني الذهبية والفضية. في الحقيقة كانت تلك عملية تحضير

لمأدبة جن، فرفع توم نفسه على مرفقيه وجلس يراقب بصمت ودون حراك. بكثير من الخشخشة والحركة وبسرعة فائقة تم تحضير المائدة، ثم دخلت مجموعة من الجن يحملون فيما بينهم على كرسي أو حمالة جنية أنثى يبدو أن الجميع يقدم لها طقوس الولاء. جلس الجميع وكانت المأدبة على وشك أن تبدأ حين تغير المزاج الاحتفالي في لحظة، إلى حالة من الترقب والارتباك. وخلال دقيقة أدرك توم سبب هذا التغير، فقد شعر الجن بوجود كائن بشري بينهم، وبكلمة من ملكتهم احتشد الجن وكانوا على وشك الانقضاض على المتطفل، لكن توم لم يفقد رباطة جأشه، وحالما بدأ الحشد بالتحرك باتجاهه تناول بندقية الصيد التي كانت محشوة وملقاة إلى جانبه وأطلق الرصاص. وفي لمح البصر اختفى الضوء وحل الظلام والهدوء والوحدة.

لنعد الآن إلى الغادر ويلي الذي وصل إلى جزيرة لونا سالماً، وبدأ يقص على الناس قصة مأساوية (طبعاً كان قد اخترعها في طريق عودته) عن ضياع رفيقه. وحين لاحظ أن الناس صدقوا قصته، لم يُضع الوقت أبداً. بل بدأ يعجل في مسألة زواجه من الجميلة أوسلا. وافق والدها جارم بحماس وبشيء من العطف. ولكن الفتاة صمت أذنيها عن جميع توسلاته. لقد شعرت بأنها

لا تستطيع أن تحبه بالإضافة إلى أنه راودها شعور بالارتياب والشك حول قصة غياب توم، وشعرت بقرارة نفسها بأنه ربما يكون ضحية لعبة دنيئة. واجهت الكثير من الضغط، ورغم رفضها تم تحديد موعد قريب للزفاف، فشعرت الفتاة المسكينة بالألم والحزن. وذات ليلة وبعد أن ظلت تبكي حتى نامت حلمت بحلم دفعها في الصباح التالي إلى الذهاب إلى بيت والدي توم، ورجتهما أن يرافقاها للبحث عن ولدهما المفقود.

وعلى الرغم من الحب الكبير الذي يكنّاه لولدهما، لكن لم يكن من السهل إقناعهما بفكرة الذهاب للبحث عنه. وحاولا من جهتهما إقناعها بأنه حتى لو كان متروكاً على إحدى الجزر الصخرية على الشاطئ كما أنبأها الحلم، فمن المرجح أنه مات من الجوع والبرد. وتحت إصرارها الشديد وافقا أخيراً، وجهزوا مركباً وانطلقوا للبحث عنه. وحسب إرشادات أوسلا، اتجه المركب مباشرة إلى جزيرة لينغا، وما إن أصبحت الجزيرة في مدى الرؤية حتى لاحظوا ما يدل على وجود بشر فيها. ركض توم إلى الشاطئ لملاقاة أصدقائه، وبعد تبادل التحية بلهفة دهش الجميع من النشاط والحيوية اللذين يتمتع بهما توم. لكن دهشتهم تضاعفت عشرات المرات عندما بدأ يروي لهم مغامرته، وشرح

لهم بأنه خلال عزلته في تلك الجزيرة كان يعيش على مخلفات مأدبة الجن، التي بالكاد تذوقوا منها شيئاً، مضيفاً بأنه كان أشهى طعام تذوقه في حياته. وفور عودتهم إلى لونا استُقبلوا بحرارة وابتهاج، ولا أعتقد أنكم بحاجة لأخبركم بأن توم وأوسلا أصبحا زوجا وزوجة. أما ويلي فقد خسر سمعته واسمه وبدأت صحته وثروته تتقهقر، ثم مات دون أن يأسف أحد عليه.

الحظيرة المعتمة[1]

قال روبي أوليفر، وهو راع مسنّ عاش في ساوث دين في جيدويتر ومات زهاء عام 1830: «بمناسبة الحديث عن الجن سأحدثكم عن آخر جني شوهد في هذا الجوار. حسناً! عندما كان أبي بيتر أوليفر شاباً كان يعيش على الحدود في بروكلو. جرت العادة في تلك المنطقة وفي ذاك الزمن أن تحلب النعاج واعتاد أبي أن يحضر نعاج بروكلو إلى شابين يافعين وكانا فطنين جسورين. وأوكد لكم أنه لم يكن هناك مزاح أو مرح بين الثلاثة. وفي النهاية ومع حلول الظلام حدث أن نظر أبي فجأة إلى قمة الحظيرة، ورأى مخلوقاً صغيراً يرتدي الأخضر وله شعر طويل أصفر كالذهب يتدلى على كتفيه. وكان المخلوق قادماً مباشرة باتجاه أبي وفي حين عوى كنوع من التحية ندت عنه صرخة غريبة غير بشرية: «هل رأيت هيوي ميلبيرن؟ أوه! هل رأيت هيوي ميلبيرن؟»».

---

(1) أصدقاء قدماء بوجوه جديدة، فيلد وتيور.

وبدل أن يرد التحية أسرع والدي عبر بوابة الحظيرة ليكون على مقربة من الشابين الآخرين قائلاً: «ليرحمنا الرب، ما هذا الشيء؟»).

«ها، ها! يا لك من شاب مريض» قال بيسي إليوت، متشرد ليدسديل الذي يتكلم دون تحفظ: «إنها زوجة!».

قال والدي: «ليحفظني الرب من أن أطلب زوجة كهذه» وظل يعترف حتى مماته بأنه في ذاك اليوم شعر بخوف جعل شعر رأسه ينتصب كشوك القنفذ.

لم يكن المخلوق أكبر من فتاة في الثالثة من العمر ولكنه كان قوياً شديداً رشيق الأطراف كأي امرأة ناضجة ووجهها كان قمة في الجمال. ولكن هناك فقط شيء واحد وحشي وغير طبيعي فيها يجعلك غير قادر على النظر إليها.

ولتجنب شر تلك المخلوقات على المرء ألا يتحرش بها. ظل المخلوق يمشي حول الحظيرة ويردد صرخته بين الحين والآخر: «هل رأيت هيوي ميلبيرن؟»، وهكذا لم يعرفوا أي خاتمة لتلك القصة أكثر من أن الجنية كانت تبحث عن شريكها.

وعندما غادر والدي والشابان الحظيرة تبعتهم إلى مطبخ هيندلي حيث قدموا لها حساء الغنم، ولكنها رفضت أن تأخذ شيئاً، وفي النهاية حرك طفل صغير يده وبدا وكأنه يريد أن يقبض عليها بمقص ويبدو أنها استاءت فذهبت بعيداً إلى جوار الموقد تردد جملتها السابقة بحزن أكبر من السابق واختفت بين أغصان النجيل.

الحارس الأمين

هذه قصة من قديم الزمان. هناك بعيداً في الشمال حيث يكسو نبات الخلنج الهضاب بثوب أرجواني في الصيف، كما يكسوها الثلج بثوب أبيض في الشتاء، وحيث يجري النهر على سفوح الجبال الصخرية ذات اللون الذهبي الداكن، التي تضفيه عليها أحجار التوباز المختبئة في عروقها.

كان هناك زعيم قوي يحكم عشيرته، وعلى امتداد الهضاب والوديان ذاع صيته واشتهر، وكان اسمه بحد ذاته قانوناً في أيام السلم وقوة في أيام الحرب.

ويقال إن البطلين سبي وغاري كانا من بين مقاتليه وإن عتاده الحربي كان من صنع غارين غورن وبين ألدر، بمعنى آخر كان سلطانه يمتد ليشمل عموم البلاد، والكثير من الرجال اعترفوا بسلطانه.

الأهم من ذلك كله، ما كان يفخر به الزعيم أكثر من كل شيء، حتى أكثر من براعته في الحرب وقوة سلطانه هما عدالته وجمال زوجته، ولم يكن ليكترث كيف ينظر أبناء عشيرته إلى هاتين الصفتين، المهم كيف يراهما هو.

لابد من أن أضيف بأن الزعيم يحظى بميزة قلما يحظى بها رجال السلطة ونعمة يحسد عليها، وهي أمانة القائمين على ثروته ومزرعته وكنوزه وإخلاصهم. وأهم هؤلاء كان إيان نا سبوران الذي توسعت مسؤولياته لتشمل قبو الخمر الذي كان لا يقل أهمية في ذلك الوقت عن الثروات الأخرى. لقد أخلص إيان للزعيم وحظي بثقته المطلقة بالمقابل.

وهل ينجو من يكون بهذا الإخلاص والتفاني والنجاح من الغيرة والحسد؟ أعتقد أن لا مفر من ذلك. إن إخلاص إيان سبوران والثقة التي حظي بها كانا كفيلين وحدهما بأن يملأ قلب إيان نا بيوب بالكره والضغينة، رغم أنه كان شاعر الزعيم. فدفعه هذا الكره ليركز كل تفكيره وجهده على التخطيط للنيل من القهرمان والحط من شأنه.

قال الزعيم لإيان نا بيوب: «لا جدوى من ولولتك بهذه الطريقة ولا من الافتراءات التي تخبرها عن زملائك الخدم، فقط أرني أنني خسرت شيئاً من محصول الذرة، من الذهب، من الخمر، أو من من الجواهر وما إلى ذلك، وعندها فقط سوف أنظر في الأمر. أنا جاهز لمحاكمة أي شيء معقول لأنني كما تعلم رجل عادل ولي زوجة جميلة».

ومر عام وإيان نا سبوران يخدم الزعيم بإخلاص، ومر عام أيضاً وإيان نا بيوب لم ينفك يبحث عن طريقة ليحطّ من شأنه ويزعزع ثقة الزعيم به.

وقبل ثلاثة أيام من حلول السنة الجديدة، الموعد الذي يجتمع فيه كل الرجال النافذين لتقديم الولاء لزعيمهم وتقديم التهاني بالعام الجديد، كان إيان نا بيوب ما زال يفكر بيأس كيف سيوقع بإيان نا سبوران. وبينما هو يمشي في الوادي وحيداً يركل الجذور والحجارة التي تأتي في طريقه، ويزفر متأوهاً عله يفرج عن ضيقه، وإذ بغراب ينعب فوق رأسه: «ما معنى هذا اللغط كله؟ هل أكثرت من تناول العنبية؟ ما الذي يؤلمك هكذا؟».

نظر إيان نا بيوب إلى الأعلى ورأى الغراب وبعينيه الشريرتين وقلبه المليء بالخبث تماماً مثل قلبه، أخبره حكايته.

قال الغراب: «أهذا كل شيء؟ ولماذا لا تتهمه بسرقة الشعير الذهبي من الزعيم؟».

أجابه: «ببساطة لأنه لا لي سلطة على الشعير، والأهم أن لا شهود لدي يثبتون أني أقول الحقيقة».

نعق الغراب: «أيها السخيف الأحمق! وماذا تعطيني إذا شهدت لصالحك؟».

هتف إيان نا بيوب: «مكيال فاصولياء من حديقتي الخاصة، وبعض السكاكر سوف أسرقها لك من مائدة الزعيم».

نعق الغراب: «كيرا كوا أقبل بهذه المقايضة، أحضر الحبوب والسكاكر إلي غداً، ثم نادني عندما تحتاج إليّ وسوف ألبي نداءك دون تأخير».

وبالفعل نفّذ إيان نا بيوب ما طلبه الغراب وأحضر له الحبوب والسكاكر.

حلّ صباح السنة الجديدة، واجتمع حشد كبير في صالة القلعة الضخمة في ذلك اليوم، حين أتى الشعب لتقديم التهاني للزعيم وزوجته، ولتقديم بياناتهم وتلقي

الأوامـــر. ومـن بين الجمع تقدم إيـان نا بيوب متأنقاً يشق طريقه إلى المـقـدمـة، ثـم حيًّا الزعيم مبالغاً في انحنائه. قال الزعيم: «ماذا لديك؟ أي نصيحة؟ أي أمنية؟ قل ما تريد دون خوف أو تردد فأنا رجل عادل وزوجتي جميلة».

صاح إيان نان بيوب: «إيان نا سبوران يسرق شعيرك الذهبي أيها الزعيم! ويجب أن يكون عقابه الموت».

سأل الزعيم: «ومن هو شاهدك؟ تذكّر أني رجل عادل وزوجتي جميلة ويجب أن أحصل على إثبات».

أجاب إيان نا بيوب: «شاهدي الوحيد هو غراب روثي ميرتشاس، لا أحد غيره».

«حسناً، في هذه الحالة يا إيان نا سبوران، يجب أن تموت».

سأل إيان نا سبوران: «ألن تستدعي جلالتك الشاهد لإثبات صحة الاتهام قبل أن تحكم علي؟ فإن وجدتني مذنباً فأنا على استعداد للموت! وإن كنت بريئاً فعدالتك وجمال زوجتك حتماً سيحمياني من المعاناة».

أجاب الزعيم: «أنا رجل عادل وزوجتي جميلة، أنت على حق يا إيان نا سبوارن، أحضروا الشاهد».

صفر إيان نا بيوب ثلاث مرات، وفي لمح البصر ظهر غراب روثي ميرتشاس على النافذة.

قال الزعيم: «هل تقسم أيها الغراب بأن إيان نا سبوران سرق شعيري الذهبي؟».

أجاب الغراب: «اقسم على ذلك».

«وما هي حجتك؟»..

أجاب الغراب: «لأن إيان نا سبوران أعطاني بعضاً منها هذا الصباح لكي يضمن سكوتي عن الإبلاغ عن سرقته، فهو يعرف أني رأيته يقوم بالسرقة، انظر بنفسك إلى حوصلتي كيف هي ممتلئة تماماً!».

«هكذا إذن!» نظر الزعيم إلى إيان نا سبوران ثم أردف: «يجب أن تموت بالتأكيد!»

ناشده إيان نا سبوران: «ولكنني أرجوك أن تفتح حوصلة الشاهد لتتأكد من أنه يقول الحقيقة».

قال الزعيم: «افعلوا ذلك، فأنا رجل عادل وزوجتي جميلة».

وهكذا فتحوا حوصلة الغراب ليجدوا داخلها بعض السكاكر والكثير من حب الفاصولياء. ثم رموا بجثته من النافذة إلى البحيرة القريبة. فتلقفها سمك السلمون الضخم المرقط وازدردها دفعة واحدة. فكانت تلك نهاية الغراب.

صرخ الزعيم: «هذا مجرد هراء! انتهت القضية، دعونا نذهب لتناول العشاء». ثم دخل الزعيم وخدمه لتناول العشاء، وفي غمرة البهجة والأطايب في قاعة الاحتفالات نسي كل ما كان من أمر محاولة إيان نا بيوب الشريرة.

وإذا كان هناك أي رجل غاضب بين الجموع في تلك الليلة فهو إيان نا بيوب، فلم يثنه فشله عن متابعة نواياه الشريرة بل على العكس فقد تابع بحثه المستميت منذ تلك الليلة حتى نهاية السنة لإيجاد طريقة يرسل بها إيان نا سبوران إلى حبل المشنقة.

ومرة ثانية وقبل ثلاثة أيام من حلول العام الجديد كان إيان نا بيوب يمشي في غابة الصنوبر في ديلوايني، ويهرس الثمرات المتساقطة تحت الأشجار بقدمه بوحشية على الأرض المتجمدة، ويرفع صوته بلهجة تعجب غاضبة من وقت لآخر.

«ما معنى كل هذا وما الذي يغضبك إلى هذه الدرجة؟»، فاجأه صوت الساحرة التي كانت تجلس على مدخل كهف مظلم، تحملق بعينين حمراوين بين غيمات الدخان الأزرق المتصاعد من النبات المشتعل في الكهف، وكأنه يتصاعد من بين فكي تنين صريع.

تفرّس إيان نان بيوب في وجه الساحرة، وعندما أدرك من مظهرها بأنها تتربص شراً مثله تماماً، لم يُضع وقتاً لإخبارها قصته على الفور.

قالت الساحرة: «ولماذا لا تقول إنه سرق ذهب الزعيم؟ أنا متأكدة أن ذلك سهل جداً».

«لأني لا أستطيع الوصول إلى الذهب، كما أني لا أملك شاهداً ليقسم أن ما أقوله صحيح إذا ما احتجت لذلك».

قالت الساحرة: «أرنب سخيف! ماذا تعطيني إذا جعلت الشمس تظهر لتشهد معك؟».

أجاب: «أفضل ما لدي».

«حسناً، إذا أردنـا أن تكون الشمس شاهدة، فيجب أن أحضّر حساء الجبابرة وأخمّره لكي أستطيع اجتذاب الشمس. أعطني خنصر قدمك اليمنى وخنصر قدمك اليسرى وسوف أقوم بالخدعة».

لابد من الاعتراف بأن إيان نا بيوب حتما كان مغتماً لخسارة أي جزء من أطرافه وللألم الذي سيعانيه، ولكن حقده ورغبته بالنيل من عدوه كانا حتماً أكبر من أي ألم أو خسارة.

ولهذا سارع إلى قطع خنصري قدميه، وأعطاهما لساحرة لوتش إيرتش لتحضر حساء الجبابرة. ثم قال: «والآن، لا أستطيع أن أمشي».

«أوه! ماهذا الهراء! سوف أعطيك عكازتي وستكون بخير».

ثم قبعت كالخنزير وشخرت مرتين كمن ينفخ بالبوق، وعلى وقع صوتها ظهر شيء غريب من خلف أشجار العرعر، وقدّم له عكازة الساحرة.

«والآن عد إلى هنا في الغد وسيكون الحساء مخمراً فتأخذه في صباح العام الجديد وتمشي به عكس دوران الشمس حول

أحجار قوس النصر ثم تنثره على الأرض عند بزوغ الشمس. وبعدها سوف تحضر الشمس إلى المجلس كشاهد».

ثم دخلت الساحرة إلى كهفها وذهب إيان نا بيوب وهو يعرج. دعونا نأمل بأن تصوره لثأره كان أفضل ضمادة لألم قدميه.

وفي صباح اليوم التالي، كونوا على ثقة، بأنه جاء مبكراً جداً إلى الساحرة وعندما ناداها ظهر الشيء الغريب ثانية من خلف أشجار العرعر وأعطاه زبدية مليئة بحساء الجبابرة فأخذها وفعل تماماً كما أرشدته الساحرة.

وبكل تأكيد اجتمع رهط كبير في ذاك الصباح للاحتفال بالعام الجديد في قاعة الاحتفالات في القلعة ليقدموا التهاني لزعيمهم وزوجته، وليستمتعوا بتذوق الأطايب على مائدته.

وبعد أن تكلم الكثير من الرجال وتم تناول الكثير من قضايا الحكم، جاء دور إيان نا بيوب فتقدم يعرج متكئاً على العكاز الذي أعطته إياه الساحرة.

قال الزعيم: «والآن يا إيان نا بيوب ماذا لديك؟ إذا كان لديك ما تقوله فلتفعل بسرعة لأنه حان وقت العشاء».

«حسنا أيها الزعيم! أخشى أن إيان نا سبوران قد أعاد الكرة وسرق نقودك الذهبية هذه المرة ويجب أن يموت».

«أنا رجل عادل وزوجتي جميلة، لذلك فلن أصدق كلامك وحدك كما تعرف. هل لديك أي شهود على ذلك؟ تذكر لا غراب أو أي طائر آخر هذه المرة!».

«سيدي، شاهدي هي الشمس نفسها ليس إلا».

قال الزعيم ملتفتاً إلى إيان نا سبوران: «إذا كان ذلك صحيحاً فسوف يقطع رأسك لا محالة».

قال إيان نا سبوران: «سيدي، مره أرجوك أن يحضر شاهده، وإن كنت مذنباً فاقتلني».

«أنا رجل عادل وزوجتي... ما المصيبة التي جعلتك تعرج بهذه الطريقة؟» قطع الزعيم جملته المشهورة ليسأل إيان نا بيوب هذا السؤال.

قال إيان نا بيوب متنهداً: «إنه الصقيع! لكن اتبعني يا سيدي الزعيم وأنتم أيها السادة، اتبعوني إلى الحجرة المطلة على الجنوب الغربي وهناك سوف أثبت لكم أن التهمة صحيحة».

سأل الزعيم: «ولماذا الحجرة المطلة على الجنوب الغربي؟».

«فقط لأن النقود المسروقة هناك، وإلى هناك سوف يحضر شاهدي».

قال الزعيم: «هيا، ولتسرع لأني جائع بالفعل ويجب أن نتناول العشاء».

قاد إيان نا بيوب الزعيم والجمع إلى الحجرة المطلة على الجنوب الغربي، وحالما دخلوا إليها كانت أشعة الشمس تدخل عبر النافذة وتتلألأ على قطع النقود الذهبية المنتشرة على الأرض بشكل يثير الارتباك.

صرخ الزعيم مشيراً إلى إيان نا سبوران: «أيها السيّاف، قم بواجبك!».

«سيدي الزعيم، لي رجاء عندك قبل أن أموت، تكرّم وخذ قطعة من هذه النقود وانظر إليها عن قرب في الظل لتتأكد هل هي إحدى نقودك الذهبية أم لا!».

قال الزعيم: «أنا رجل عادل وزوجتي جميلة، أعطوني واحدة من هذه النقود الذهبية».

فأعطوه قطعة من النقود ثم أخذها الزعيم إلى الزاوية بعيداً عن أشعة الشمس ونظر إليها فوجدها قطعة نقود عادية وليست ذهبية على الإطلاق.

قال الزعيم لإيان نا بيوب: «لو كان شاهدك ضمن دائرة سيطرتي، لكنت سحقته! أما أنت فستنال عقابك بعد العشاء».

وتأبط الزعيم ذراع إيان ناسبوارن وأسرع إلى صالة الاحتفالات حيث مأدبة العشاء لأنه كان جائعاً حقاً ولم يطق مزيداً من التأخير.

ولكن للمرة الثانية نجا إيان نا بيوب من العقاب لأن الزعيم نسي ما حصل في الصباح وما فعل إيان نا بيوب الشرير في غمرة الاحتفال والأطايب، فقد كان أمراً سخيفاً لا يستحق أن يتذكره.

لابد أنكم تتخيلون الآن كم كان إيان نا بيوب متوحشاً في ادعائه الفاشل للمرة الثانية، تخيلوا أنه فقد إصبعيه في تلك المكيدة ولم يحصل على شيء من حرب الثأر التي يسعى إليه.

قال لنفسه: «سأنتقم من تلك الساحرة الشمطاء مهما كلفني ذلك! فإن رفضت أن تساعدني بطريقة أفضل مما فعلت في المرة الماضية فسيكون مصيرها الحرق. وإلا لما كان اسمي إيان نا بيوب!».

وما إن اقترب العام الجديد الذي كان فرصته الوحيدة، حتى قصد كهف الساحرة وناداها بصوت عال فخرجت إلى باب الكهف، وحين نظرت إليه نظرة شريرة بدأت شجاعته تتسرب من رؤوس أصابعه (تعلمون أنه لم يعد لديه ما يكفي من الأصابع فلم تصل شجاعته إلى تلك الدرجة) وتحولت كلمات الغضب إلى نحيب مستضعف وشكوى.

قالت الساحرة: «إذن، ما الذي أتى بك ثانية إلى هنا؟».

«الفشل الذريع للدسيسة التي دبرتها» شهق إيان نا بيوب متحسراً ثم أخبرها بكل ما جرى معه في ذلك اليوم.

صرخت به الساحرة: «خطأ من كان ذلك، أتمنى أن تخبرني؟ لا أستطيع التفكير في خطة أخرى تناسب شخصاً مغفلاً مثلك. لا أريد أن أراك هنا! لم أر شخصاً بمثل حماقتك، اذهب من هنا فلن أتعب نفسي معك مرة أخرى لأن ذلك سيكون بلا جدوى».

صاح إيان نا بيوب: «أتوسل إليك أن تنجديني بخطة!» وقد نسي ألمه وخيبته أمام أمله بالانتقام. «أضحّي بأي شيء لكي أوقع بإيان نا سبوران!».

«حسنا، أحضر لي مزيداً من السكاكر من مائدة الزعيم وسوف نثبت بأنه سرق خمر الزعيم هذه المرة».

أخذ إيان نا بيوب يعول: «ولكن ليس لدي شهود، مات الغراب ولم تنفعني الشمس، ماذا سأفعل الآن؟».

قالت الساحرة بازدراء: «أيها الأحمق الجبان! سوف نجعل القمر يشهد معك، ولكن يجب أن نحضر حساء الجبابرة وإلا لن نستطيع فعل أي شيء. أعطني إبهام قدمك اليمنى وإبهام قدمك اليسرى وسوف أعد الحيلة أو ارحل من هنا ولا ترني وجهك ثانية!».

فكر إيان نا بيوب في الأمر وخلص إلى نتيجة بأنه كما خسر إصبعيه الصغيرين فلا بأس بخسارة إبهامي قدميه في سبيل تحقيق مأربه. فقطعهما دون تردد وأعطاهما للساحرة.

«آه، آخ، آه!» صرخ من الألم. ثم قال: «انظري إلي الآن لا أستطيع المشي، حتى بمساعدة العكازة!» ثم جلس على الأرض وبدأ يؤرجح قدميه في الهواء.

قالت الساحرة: «هيا الآن، لا تجلس هنا تنوح كالأطفال». ثم عوت وشخرت مرتين كأنها تنفخ في البوق فظهر الشيء

الغريب من خلف أشجار العرعر، وأعطاه معطفاً فضفاضاً طويلاً مصنوعاً من شعر الخنزير، وعندما لفه حول خصره وربطه بحزام جلدي كان كدعامة تحيط به من كل الجهات.

«تبدو رائعاً»، قالت الساحرة بنظرة استهزاء كريهة.

«أتمنى لو كنت صنعت شيئاً لنفسك يجعلك جميلة»، أجابها وهو يتهادى على الطريق باذلاً أقصى جهده. «سوف أعود في مساء الغد قبل غروب الشمس من أجل الحساء».

وفي مساء اليوم التالي وقبل أن يزحف الظلام على الغابة ويغطي الهضبة كان إيان نا بيوب يقف على باب الكهف ثانية.

وسرعان ما ظهر الشيء الغريب من خلف أشجار العرعر، وأعطاه زبدية حساء الجبابرة التي أعدتها له الساحرة في ذاك الوقت.

قالت الساحرة: «اذهب إلى صخرة أو سين، حيث شجرة الصنوبر تمدّ أغصانها إلى السماء، وهناك وعند ظهور القمر امش ثلاث دورات حول الجذع اليابس بعكس حركة الشمس، ثم رش الحساء على الأرض أمامها».

ومغالباً ألمه ذهب إيان نا بيوب إلى صخرة أو سين حاملاً بيده زبدية الحساء وباليد الأخرى عكازة الساحرة وجسمه مدعوم بالمعطف. فعل تماماً كما طلبت منه الساحرة، فما إن ارتفع القمر فوق جرف بريرش حتى رش الحساء على الأرض أمام القمر متوسلاً إليه أن يأتي في اليوم التالي ليكون شاهداً عندما يستدعيه.

وفي اليوم التالي وكما جرت العادة مع حلول العام الجديد، اجتمع الأعيان والخدم وذهبوا جميعاً إلى القلعة ليقدموا التهاني للزعيم وزوجته، ويتلقوا النصائح والإرشادات. وجاء إيان نا بيوب معهم متدثراً بمعطفه المصنوع من شعر الخنزير، ويبدو في أسوء حالاته ويستبطن أقسى وحشيته.

«أي مسكين لدينا هنا؟»، قال الزعيم في نهاية الاجتماع عندما تقدم إيان نا بيوب يعرج إلى حضرة الزعيم ليقدم إفادته.

«مع الآسف يا سيدي الزعيم لقد تمكنت عضة الصقيع من أطرافي بشكل كامل، وزحفت إلى منطقة أعلى من السنة الماضية، وبالرغم من الألم الذي أعانيه إلا أني أتيت إلى هنا لأقدم اتهاماً للوغد إيان نا سبوران، وأطالب باسم عدالتكم أن يشنق على الفور».

صاح الزعيم: «أنا رجل عادل وزوجتي جميلة ولن أدين أي شخص دون أدلة أو شهود، قل ما عندك ولكن حذار أن تعبث معي هذه المرة!».

قال إيان نا بيوب: «لقد سرق نبيذك يا سيدي، ولدي ما يثبت ذلك».

«سرق نبيذي! حقاً؟ إذن لابد من أن تكون نهايتك» قال الزعيم ملتفتاً إلى إيان نا سبوران «يجب أن تلقى حتفك».

قال إيان نا سبوران: «سيدي الزعيم، هل ستصغي لما يقوله عدوي مجدداً من دون دليل مؤكد؟».

«أبداً، هذا سيكون تشكيك بعدالتي وجمال زوجتي. أين شاهدك؟» أردف بلهجة عنيفة موجهاً كلامه لإيان نا بيوب.

قال إيان نا بيوب: «شاهدي هو القمر وليس سواه لأن الفعل تم خلال الليل وسوف يحضر القمر في المساء ويثبت ذلك».

هتف الزعيم: «طوبي للقمر! حيث أنه لا يرغب بالحضور الآن وبهذا أستطيع تناول عشائي أولاً». وهكذا دون مزيد من اللغط خرج من قاعة الاجتماعات وتوجه إلى قاعة الاحتفال

حيث أعدت المأدبة. ولكن في غمرة استمتاعه بأطايب الطعام والشراب نسي الزعيم تماماً أمر الصباح.

وبعد أن شربوا حتى الثمالة وأكلوا أكثر من حاجتهم زحف إيان نا بيوب إلى الزعيم، ورجاه أن يذهب معه إلى حجرة في البرج الغربي الشمالي حيث ينتظر الشاهد هناك ليثبت التهمة.

قال الزعيم: «لا أكترث بالشاهد! اقطعوا رأسه لا أهتم، ولا أريد دليلاً».

قال إيان نا سبوران: «يا أنبل الأسياد، تذكر أنك رجل عادل وزوجتك جميلة».

زأر الزعيم: «أيها الحشرة لك كل الخطوات!»، ونهض غاضباً: «ألا أستطيع حتى أن أتناول عشائي بسلام! حسناً ولكن بهذه الحالة أي شخص يعبث معي ليعتبر نفسه ميتاً!».

وهكذا مشى خلف إيان نا بيوب بغضب يحثه على السرعة بركلة بين الحين والآخر، وخلفه مشت زوجته وباقي الخدم والرجال المتلهفون لمعرفة ما سيجري».

وعندما وصلوا إلى البرج الشمالي الغربي، ودخلوا إلى الغرفة كما تتوقعون كانت الأواني والأكـواب ودنان النبيذ منثورة في أرض الغرفة ومملوءة بالنبيذ الأحمر القاني. ما من أحد يستطيع أن يشكك في الأمر لأن ضوء القمر كان ينير المكان وكأنه ضوء النهار.

صاح الزعيم: «لقد رأيت بما فيه الكفاية! إيان نا سبوران اركع على ركبتيك وأنت أيها السيّاف أعطني سيفي المسنون! تخطط لسرقة نبيذي أليس كذلك؟ سوف أقطع رأسك ولن تشعر بالعطش بعد الآن!».

قال إيان نا سبوران: «أتوسل إليك سيدي»، ثم ركع على ركبتيه وأردف: «امنحني طلباً أخيراً قبل أن أموت ولن أعترض على طلبك، فقط تذوق قطرة واحدة من هذا النبيذ ولتكن رغبتي الأخيرة قبل أن تقتلني».

أجاب الزعيم: «حسناً، رغم أنك لا تستحق ولكني سأفعل ذلك»، وتناول أحد الأكواب وقرّبه من شفتيه، وتابع كلامه: «لأني رجل عادل وزوجتي... آه، أوف، ما هذا، يا إلهي!» وبتكشيرة مخيفة بصق السائل أرضاً.

«اعطوني بعض الماء أو النبيذ أو حتى الحساء لكي أتخلص من هذا الطعم الذي في فمي! سحقاً! أوف! لقد تسممت حتماً وسوف أموت!»، صرخ الزعيم خارجاً من الغرفة بسرعة مفرقاً الجموع من حوله في الاتجاهين. «اعتقلوا إيان نا بيوب! سوف يموت غداً قبل صياح الديك!» وبلحظة نزل الزعيم الدرج وأنفه في كوب من الحساء قبل أن يتسنى لأحد أن يسأله: «كيف حالك؟» أو حتى قبل أن يفيق أحد من الدهشة التي وضعهم بها.

ولكن الزعيم لم يتسمم على الإطلاق، بل كل ما في الأمر أنه شرب من الماء البني اللون الذي سكبه إيان نا بيوب في الأكواب، وقد بدا لونه أرجوانياً في ضوء القمر. أما إيان نا بيوب وفي انتظار إعدامه في الصباح التالي فقد أودع في زنزانة محروسة تحت الهضبة لئلا يفكر في الهرب.

ولكن بطريقة أو بأخرى تدبر إيان نا بيوب أمره بإرسال رسالة إلى زوجة الزعيم يقول فيها إن لديه شيئاً بالغ الأهمية يرغب بالبوح به لها فقط، ولكي يحثها على الموافقة أضاف بأن الأمر مهم، وإذا لم تتح له الفرصة ليقوله للسيدة فسوف يموت السر العظيم معه ويضيع إلى الأبد، فمن المؤسف أن تدع هذا

يحدث وبإمكانها أن تستمع لما يقوله بسهولة من خلال فتحة المفتاح في باب زنزانته بينما يحكي هو من الطرف الآخر من الباب ولن يسيء ذلك الأمر لأحد.

فكرت السيدة في الأمر وقررت بأنها إذا استجابت لطلب السجين فلن يتضرر أحد، كما أنه ليس من الضروري أن يعلم الزعيم بالأمر، بالإضافة إلى أنها كغيرها من النساء لم تستطع قمع فضولها وشيطانه الذي بدأ يوسوس في أذنها. فانتظرت حتى منتصف الليل، ثم رشت السجان وجاءت إلى الزنزانة حيث يحتجز إيان نا بيوب. هناك نقرت ثلاث مرات على الباب، ثم وضعت أذنها على فتحة المفتاح.

حسناً لا شك أنكم متشوقون لمعرفة السر الذي باح به إيان نا بيوب للسيدة، ولكن دعوني أقول لكم إنه ليس مهماً لي أو لكم معرفة ما قاله إيان نا بيوب، ولكن بغض النظر عما قاله، يبدو أنه تسبب بالكثير من العواقب ويبدو أنه كان سراً بالغ الأهمية، لأن إيان نا بيوب قال للسيدة إنه لا يستطيع أن يشرح لها أمر السر إلا في ثلاثة أيام على الأقل، مما دفع السيدة أن تذهب إلى زوجها فوراً وترجوه أن يؤجل إعدام إيان نا بيوب لثلاثة أيام. ولما كان الزعيم قد استعاد مزاجه فقد استجاب لطلب زوجته بعد اعتراض قصير.

لم يستمر اعتراض الزعيم كثيراً لأنه يعرف تماماً أن زوجته ليست جميلة وحسب، بل أيضاً إذا ما أصرت على شيء فلابد من أن تحصل عليه، وإلا فسوف تقيم الدنيا فوق رأسه ولن تقعدها قبل أن تحقق رغبتها. وهكذا استجاب الزعيم لطلبها.

ولأن إيان نا بيوب كان من المستحيل أن يهرب وعضة الصقيع تأكل أطرافه كما أخبرهم، فقد سمح له السجان بالذهاب إلى القلعة بحريته لأنه لم يرد أن يزعج السيدة ويجعلها تأتي إلى الزنزانة لثلاثة أيام متتالية، بالإضافة إلى أنه كان سعيداً لأنه ارتاح من حمل الطعام له بين الحين والآخر.

لا شك أن إيان نا بيوب كان يعاني آلاماً مبرحة وخوفاً مروعاً من حبل المشنقة الذي يتدلى فوقه، ولكن ربما كانت نار الثأر التي تحرق قلبه ولم تخمد، أكبر من ألمه وخوفه.

«تباً لو أستطيع فقط أن أتدبر خطة لموت ذاك الشخص فسوف أموت سعيداً!»، قال إيان نا بيوب لنفسه بحسرة وهو يعض أصابعه حتى العظم ويربض على الدرج يفكر ويفكر ويفكر.

وبينما هو جالس على الدرج يفكر، نظر فجأة ولمح القمر في السماء الزرقاء الباردة ينظر إليه من عليائه عبر النافذة المفتوحة، فهز قبضته غيظاً وشتمه شتى الشتائم، ثم سطعت النجوم واحدة تلو الأخرى تغمز وتومض وكأنها مصدومة من سلوكه القذر. وبينما هو يراقب النجوم خطرت بباله فكرة جهنمية خبيثة، فوقف فجأة وابتسامة مكر ترتسم على وجهه. تناول كوباً من الكريستال ووقف إلى جانب المائدة، ومستعيناً بالعكازة والمعطف تسلق الدرج الملتوي شاقاً طريقه إلى الحجرة الجنوبية. دخل الغرفة وأقفل الباب من الداخل ثم جلس على كرسي مقابل النافذة المفتوحة، وأغلق الستائر الصنوبرية التي تتدلى على جانبي النافذة، وتناول مثقباً حاداً من حقيبته وجلس يعمل طوال ساعتين دون توقف يحفر ثقوباً في الكوب بعضها كبير وبعضها صغير، ثم قطعها بخطوط مستقيمة ودوائر وجعلها بقدر المستطاع تشبه النجوم الذي شاهدها في سماء الشتاء.

ثم قطع كوب الكريستال بعكازته إلى قطع صغيرة وذرّها على الطاولة بالقرب من النافذة المغلقة وعلى الأرض، ثم ترك الغرفة بابتسامة رضى، وأغلق الباب خلفه وأحكم إغلاقه وأخذ المفتاح ومضى.

همس لنفسه: «والآن حان دور المفتاح».

«سبوتي فيس[1]! سبوتي فيس! سبوتي فيس!» صاح بأعلى صوته من نافذة الممر ماداً عنقه للخارج قدر ما يستطيع فوق مياه البحيرة. «سبوتي فيس تعال إلى هنا!»

نظر سبوتي فيس سمك السلمون الضخم الذي يعيش في البحيرة متوقعاً أن يرمي إليه أحد ببعض الطعام من فوق.

تابع إيان نا بيوب: «سبوتي فيس! سبوتي فيس! إذا أعطيتك بعض السكاكر من مائدة الزعيم فهل تسدي لي معروفاً؟».

كان سبوتي فيس دنيئاً متوحشاً ولا يحب أبداً أن يقدم معروفاً لأحد، ولكن بما أن الوقت شتاء وليس لديه الكثير من الفرص ليحصل على الطعام ولا حتى على الطحالب من ضفاف البحيرة، لذلك رفع أنفه خارج الماء ولوّح بذيله كإشارة للموافقة.

«إذن، خذ هذا المفتاح وارمه على الضفة تحت نافذة غرفة إيان نا سبوران، أنت تعرفها طبعاً إنها في الجهة الأخرى من القلعة. إن ما أطلبه منك أمر بسيط ويجب أن تنفذه، وسوف أرمي لك ببعض السكاكر من النافذة بعد أن يغادر الزعيم صالة الطعام في المساء.

(1) سمك سلمون كبير الحجم ومرقط (المؤلف).

رمى إيان نا بيوب المفتاح لسبوتي فيس ومضى في طريقة نازلاً الدرج.

لكن عندما حمل سبوتي فيس المفتاح ووجده بارداً كقطعة ثلج بين فكيه، لم يتمالك نفسه فبصقه ثانية على الضفة في المكان الذي كان فيه، وتركه هناك بقعة سوداء على الثلج المتجمد تحت نافذة إيان نا بيوب، وغطس إلى قاع البحيرة.

وحين جاء اليوم الموعود كان على إيان نا بيوب أن يعاني من عواقب مكره الشرير وخداعه الزعيم. فاقتاده السجان إلى صالة القلعة حيث احتشد الناس والزعيم وزوجته ليشهدوا تنفيذ حكم الإعدام فيه.

بدأ الزعيم حديثه: «أنا رجل عادل وزوجتي امرأة جميلة، لقد خدعتني وحاولت أن تسممني والآن سوف تنال عقابك وسوف تموت. هذا حكم لا رجعة فيه».

صاح إيان نا بيوب: «أتوسل إليك أن تمنّ علي بطلب أخير قبل أن أموت! دعني فقط أهمس بسر خطير في أذن جلالة السيدة».

زأر الزعيم: «لن تحصل على شيء! اذهب إلى حيث سيقطع رأسك ولست أرغب بمزيد من التأجيل».

لكن جلالة السيدة لم تكن لتسمح بأن تفوت على نفسها فرصة معرفة ذاك السر بغض النظر ماذا سيكون، خاصة أنها أمضت اليومين المنصرمين تفكر ماذا يمكن أن يكون وقد أرهقت نفسها كثيرا بالموضوع، لذلك عندما سمعت تصريح زوجها نظرت إليه نظرةً عرف من خلالها جيداً بأن لسانه يجيب بالرفض بينما عيناه تشيان بالموافقة.

همس إيان نا بيوب سره في أذن السيدة.

«ماذا؟ ماذا؟ مجوهراتي، مجوهراتي المتلألئة؟» صاحت السيدة وأطبقت قبضتيها وركضت تبحث عن إيان نا سبوران. وقفت أمامه ورفعت قبضتها في وجهه مهددة وقالت: «أعد إلي مجوهراتي أيها اللص الوغد، أعد مجوهراتي التي سرقتها!».

سأل الزعيم قافزاً عن كرسي الحكم: «ما سبب كل هذا الاهتياج!».

قال إيان نا بيوب: «تسأل ما السبب؟».

وقالت الزوجة: «لقد سرق أن إيان نا سبوران مجوهراتي يا زوجي العزيز يجب أن تشنق إيان نا سبوران على الفور».

قال الزعيم: «هدئي من روعك يا عزيزتي! أنت امرأة جميلة ولكن تذكري أن تكوني عادلة أيضاً. في الحقيقة لن أصدق كلمة من هذا الكلام، ويجب أن تعلمي فيما يخص إيان نا بيوب سواء أحضر شهوداً أو لم يحضر فلن أثق به مجدداً، وهذا أمر بديهي!».

قال إيان نا بيوب: «كم شاهداً تريد لتصدق ما أقوله؟ هل يكفي عشرة شهود؟».

زأر الزعيم: «لا! لن أقبل بأقل من عشرين شاهداً، فاغرب عن وجهي وامض إلى حتفك!».

صاح إيان نا بيوب: «لا بأس لدي عشرون شاهداً لإثبات ما أقوله وهم ينتظرون في هذه اللحظة في القلعة».

وهنا وجد الزعيم نفسه وكأنه وقع في شرك كلمته ولم يكن من اللائق لشخصه أن يتراجع عنها، فاستجاب لطلب إيان بالاستماع إلى شهوده.

هـدر صوت الزعيم: «ومـن عساهم يكونون أولئك الشهود؟».

أجاب إيان نا بيوب: «ليسوا إلا نجوم السماء».

قال الزعيم: «هذه خدعة سخيفة لتأجيل تنفيذ الحكم حتى المساء!».

أجاب إيان نا بيوب: «لا أقصد ذلك مطلقاً سيدي، فالشهود ينتظرون في هذه اللحظة بالذات في الحجرة الجنوبية وإضافة للشهود فإن المجوهرات المسروقة موجودة هناك أيضاً»، همس جملته الأخيرة في أذن السيدة.

«هيا بنا!، هيا بنا!»، صاحت الزوجة ممسكة بثوب زوجها، ثم تقدم إيان نا بيوب الحشد إلى باب الحجرة الجنوبية ووجد الزعيم نفسه مجبراً على الذهاب شاء أم أبى، فزوجته بدت كأنها فقدت صوابها.

«والآن أين المفتاح؟» قال إيان نا بيوب عندما وصل إلى الباب ووجده مقفلاً. «هذا أمر آخر أيضاً».

«من البديهي أن الشخص الذي أخفى شيئاً وحده يستطيع إيجاده! لابد أن المفتاح في حوزته،!» قال إيان نا بيوب مشيراً إلى إيان نا سبوران. «فتشوه، فإن لم يكن المفتاح معه فمن المحتم أنه خبأه في غرفته، وإن لم يكن هناك ربما رماه خارج الغرفة. أعرف هذه الخدع جيداً!».

قال أحد أتباع الزعيم وهو ينظر من نافذة الممر: «لماذا كل هذه الإدعاءات، انظروا إنه هناك على الضفة!». وبالفعل كان المفتاح هناك ملقى تحت نافذة حجرة إيان نا بيوب.

ركضوا إلى المفتاح وأحضروه ولكن إيان نا بيوب كاد أن يفقد وعيه حين اكتشف بأن السلمون قد خدعه.

وفتح الباب على مصراعيه، وهناك بلا شك كانت المجوهرات منثورة على الطاولة وعلى الأرض تتلألأ تحت ضوء النجوم الذي يدخل من النافذة ليضيء الحجرة المظلمة.

صاحت زوجة الزعيم وركضت إلى المجوهرات: «مجوهراتي، مجوهراتي!».

صاح الزعيم: «إيان نا سبوران، هذه المرة سوف تموت لا محالة!».

وصاحت الزوجة: «حتماً سيموت، سيموت على الفور، نعم على الفور، لأنه يستحق ذلك».

قال إيان نا سبوران: «أرجوك سيدي النبيل، اسألوا هؤلاء الشهود ودعوهم يخبروكم بالحقيقة».

قال الزعيم: «ما هذا الهراء التي تتفوه به! إنهم على بعد أميال من هنا، فكيف لهم أن يسمعوني؟».

أجاب إيان نا سبوران: «إنهم فقط على الطرف الآخر من النافذة، اسمح لي أرجوك بأن أستدعيهم».

«لا تسمح له، لا تسمح له!» صرخ إيان نا بيوب وهو يعرج ويشد معطفه وتقدم إلى الباب ليمنعه من الخروج. «إنه يريد أن يخدعنا خدعة دنيئة!»

هدر صوت الزعيم: «وهل نسيت خدعك إيان نا بيوب! وربما نسيت أيضاً بأنني رجل عادل وزوجتي جميلة. إيان نا سبوران اخرج ولوّح للنجوم».

وذهب إيان نا سبوران إلى النافذة وطوّح بالستائر فاتحاً النافذة على مصراعيها، فملأ ضوء النهار الغرفة وحجب الجميع عيونهم بأيديهم حيث بهرهم التغيير المفاجئ.

قال إيـان نا سبوران: «سيدتي الكريمة، انظري الآن إلى مجوهراتك! ليس سوى الزجاج ما رأيته، وأين هم شهود عدوي؟ أعتقد أنهم ما زالوا نياماً في أحضان الليل في الجهة الأخرى من المحيط».

قال الزعيم: «إيان نا سبوران، سامحني، بل سامحنا جميعاً!»، وتقدم باتجاه إيان نا سبوران مصافحاً. «أعدك بأننا سوف لن نرتاب بك مرة أخرى، أبداً، أبداً، أبداً طالما نحن على قيد الحياة. اطلب مني تحقيق رغبة وسوف تنفذ على الفور».

صاح إيان نا سبوران: «حسناً إذن امنحني حياة إيان نا بيوب، فبما أنني أسعد إنسان في البلدة اليوم فلست أريد أن يعاني أحد ويتألم بينما أنا سعيد».

أجاب الزعيم: «لك هذا بشرط واحد، إيان نا بيوب تقدم إلى الأمام وارفع كلتا يديك واقسم بأنك لن تحاول أن تختلق الأكاذيب وتحضر شهوداً مزيفين مرة ثانية».

تهادى إيان نا بيوب إلى الأمام ورفع كلتا يديه فوق رأسه، ولكنه عندما أفلت العكازة فقدَ توازنه وسقط على وجهه أمام الزعيم ولم تفلح كل جهوده للنهوض مجدداً.

قال الزعيم: «لقد كتبت قدرك بنفسك، ارموه في البحيرة فالمشنقة كثيرة عليه!».

وهكذا طوّحوا بإيان نا بيوب وعكازته ومعطفه وكل ما يخصه من النافذة إلى البحيرة، حيث يعيش سمك السلمون الضخم الذي تلقاه قبل أن يصل إلى قاع البحيرة وبلعه دفعة واحدة هو ومعطفه.

قالت الزوجة للزعيم: «زوجي العزيز، أعتقد بأنك ذكي بقدر ما أنت عادل». ثم قبلته على خده الحنطي.

أجابها الزعيم: «وأنت يا حبيبتي، أنت حساسة بقدر ما أنك ذكية».

ومع هذه الكلمات قبلها على خدها الأيسر وهذا تصرف جميل منه. ألا ترون ذلك بعد أن غير رأيه مرة تلو الأخرى من أجل العدالة.




ISBN 978-9948-01-547-5
9 789948 015475




كلمة
KALIMA


المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة